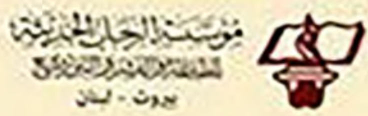
أ.د احمد الخولي

أ.م.د ماجد مرهج

الدولة الصفوية

السلب والإيجاب



الدولة الصفوية

السلب - الإيجاب

أ.د احـمد الخـولي

أستاذ في جامعة عين شمس

أ.م.د ماجد مرهج

أستاذ في جامعة واســط العراق

الدولة الصفوية

السلب - الإيجاب





الكتـاب: الـدولـة الصفـويـة
السـلب - الإيجـاب
الموضوع: فـكـر
تألـيف: أ. د أحمـد الخولـي
أ.م.د. ماجد مرهـج

ISBN 978-9953-594-79-8

الطبعة الأولى: 2017
تصميم الغلاف:
القسم الفني في مؤسسة الرحاب الحديثة
تصميم وإخراج داخلي: حسين طه



هـاتـف: 00961 3 359788 تلفاكس: 00961 7 241032
ص. ب. 11/3847 - بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com

الإهداء

إلى

أصدقاء وأعداء الدولة الصفوية

المؤلفان

المقدمة

هذا الكتيّب وليس الكتاب؛ عملاً بقضية القراءة السريعة ومنهجيتها في تاريخنا المعاصر الذي غلبت عليه التقنية في كل شيء فاستبد الإنترنت بالناس في الحصول على معلومة سريعة، وقد تكون مغلوطة، وما استتبع ذلك من الكتب الرقمية التي يخزنها في حافظته بما لا يجعل للكتب الورقية الضخمة من موسوعات ومجلدات وأجزاء تواجدًا.

والكتيب يتناول موضوعًا يتصل بدولة عمرت قرابة قرنين ونصف من الزمان وواجهت قوى كبيرة حولها من الشرق والغرب، وأوجدت حراكًا فكريًا في العالم الإسلامي عامة والمجتمع الإيراني خاصة، ونظرت نظره في الأسس المالية من باب الاقتصاد بما يقتضيه من ترتيب شؤون الحكومات التي قامت في حقبتها الزمنية بأنواعها المختلفة والمتعددة أو بعدها. أما الفنون فقد حظيت على يدها بنهضة يشار إليها بالبنان، ويكفي أن عاصمتها أصفهان عُرفت "بنصف الدنيا"، ناهيك عن غرام الرحالة الأجانب بالسفر إلى إيران في زمانها، بل إن البعض منهم استقر فيها ودفن بها.

معنى ذلك أن هذه الدولة، كان ولابد أن يكون لها من التأثير في بناء العالم الإسلامي ما يستوجب الإشارة إليه إن إيجابًا أو سلبًا خاصة أننا ما زلنا نحتفل به كحضارة باتساعها أو نعاني منه كالفتن المذهبية بتداعياتها حتى يومنا هذا.

وسيسير منهج الكتيب على نحو مختصر لا يهتم بالحدث التاريخي بقدر ما يمهد للتأثير الإيجابي أوالسلبي بحيث يشد القارئ إلى تواصل القراءة من ناحية ويشحذ همته – إن أراد – في استفتاء على عناصر الإيجاب والسلب في هذه الدولة من ناحية أخرى.

والله ولي التوفيق.

السياسات المذهبية

كان لقيام هذه الدولة أثر كبير في وحدة الأراضي الإيرانية تحت حكم قومي واحد بعد الفتح الإسلامي متخذًا شعار القومية الإيرانيـة والمذهبيـة الشيعية أيدلوجية له، إلى حـد يمكننـا معـه القـول إنـه لاتـساع شـهرتها في الدنيا عامـة مـن ناحيـة، ورد فعـل هـذه الـشهرة عـلى الدراسـات الـشرق أوسطية في الغرب خاصة بدءًا من القرن العـاشر الهجـري- الخـامس عـشر الميلادي من ناحية أخرى،فقد أفادت بعض الـدول مثـل الولايـات المتحـدة الأمريكية في ترسيخ نهضتها الـسياسية والحـضارية عـلى هـذا الـشعار مـع تغيير بسيط بأن أقامت دولتها عـلى أسـاس القوميـة الأمريكيـة والمذهبيـة الحرة.

بعد أن تحولت إيران إلى المذهب الشيعي لدى تأسيس هذه الدولـة أخذت مراجع المذهب ورجاله بما صـار لهـم مـن نفـوذ شـعبي يقاسـمون الملوك صلاحيتهم بل إن مصائرهم أصـبحت رهنـا بـالفتوى التـي يـصدرها المرجع.

صحيح أن هذا الأمر كان ضـعيفًا في أول الحكـم الـصفوي باعتبـار أن الشاه كان هو الشيخ المرشد (بير مرشد) الذي يأتمر الجميع بـأمره، إلا أنـه صار قويًا فيما تلا ذلك من أوقات حتى تـوفرت أسـباب سـقوطه وتمهـدت الأوضــــاع لـ (نادر شاه أفشار)[1].

---

(1) نادر شاه أفشار مؤسس الدولة الأفشارية ولد في سهل " كَز" بإقليم خراسان في شهر المحرم 1100 هـ / 1688م. مات عنه أبوه وهو طفل، وفي الثامنة عـشرة من عمره التقى واحداً من رؤساء الأفشارية في منطقة "أبيورد"، وتزوج من ابنته وترقى في سلك العسكرية لما امتاز بـه مـن بنيـان قـوي وعـزم كبير إلى أن صار قائدًا للجيش ألصفوي، وأعلن نفسه ملكًا على إيران مؤسـسًا دولتـه التـي حكمـت لستين عامًا.

انظر: نادر شاه، احمد الخولي، إصدارات المجلس الأعلى للثقافة، المركز القومي للترجمة القاهرة 2010 م

كان لزامًا أن يحـدث هـذا الوضـع بـسبب الـسياسات التـي انتهجهـا الشاه إسماعيل الأول مستمداً إياها من تـاريخ سـابق عليـه عنـدما تعلـق جده الشيخ صدر الدين ابن الـشيخ صـفي بالفرقـة الـشيعية المعتدلـة أي الإمامية (الاثنى عشرية) وبدأت إرهاصات رغبته في النفاذ بين النـاس،فراج المـذهب الـشيعي بالتـدريج بـين القـرويين والمحتـاجين في القـرنين الثـامن والتاسع الهجريين، الثالث عشر والرابع عـشر الميلاديـين، ويبـدو أن حكايـة انتساب الشيخ صفي بالإمام موسى الكاظم تعمقت في هـذه الأوقـات، بـل إن الصفويين أفادوا منهـا في توجيـه دعـواهم الـسياسية. وبقـدر مـا عـاش شيوخ الصفويين الأوائـل في أردبيـل وكانـت لغـتهم الأم هـي الآذريـة فـإن نفـوذهم غـزا بـلاد آسـيا الـصغرى[1]، وسـاعد تتـاخم الحـدود عـلى تبـادل الهجرات بين القبائل التركية[2] التي نشأت في فترات متفاوتة على أن يرتحل أغلبها إلى آذربيجان وما خلفها بسبب عداوة فيما بينهم.

اتخذت هذه القبائل اسمًا لها وهو "القزلباش" الـذي يعنـي بالآذريـة ذوات الرأس الأحمر وهي عمامة عليها 12 شريطـاً ترمـز إلى الأئمـة الاثنـى عـشر. وهـى القبائـل التـي شـكلت فـيما بعـد جـيش الدولـة الـصفوية فاختلطت الدعوة المعنوية بالخشونة البدوية مما جعل فتح إسماعيل الأول

(1) أن تأثيرات الفرق الدينية على أتباعها منذ خمـسين عامًـا عـلى الأقـل كـان الـشيخ سلامة الراضي له تـأثير، عـلى مريديـه، يـزور قريـة أو مدينـة مـثلاً، كنـت تجـد الزينات والاستعدادات الحارة والموائد الضخمة حدث ولا حرج، فما بالك بالتاريخ القديم. وفي مصر يرتبط كثير من الناس حتى الآن بمسجد الحامدية الـشاذلية. وفي الأناضول امتدادا حتى كشمير في الهند نجد أن تأثير المولوية مريدي جـلال الـدين الرومي لهم دخل بصنع التاريخ.

(2) الدولـة الـصفوية، احمـد الخـولي، ص 41 ومـا بعـدها، دار الكتـب الجامعيـة، القاهرة 1981م.

لولايات إيران واحدة تلو الأخرى تأسيسًا لدولته وإقرارًا للمذهب الاثنى عشري يختلط بتصرفات شديدة من القسوة البالغة التي استن بها سنة سيئة – وهو لم يزل بعد صغيرا– فاتبعها من جاءوا بعده فها هو نادر شاه مؤسس الدولة الأفشارية يقتل من يعارضه ويحرق أبنية كاملة بمن فيها، وها هو محمد حسن خان قاجار مؤسس الدولة القاجارية يخصي معارضيه.

تمثلت هذه المثلبة - السنة السيئة - في سحق معارضيه، فخلّف مثلا ثمانية آلاف قتيل في معاركه مع السلطان مراد ابن السلطان يعقوب التركماني، وعندما شرع فى حربه ضد حسن كيا حاكم فيروزكوه بعد ثلاث سنوات من إعلانه تأسيس الدولة فمنع عنه المياه هو وأعوانه في القلعة التي حبسوا بها[1]، ولم يبق على أحد إلا وأهلكه.

كما أنه كان يلجأ إلى حرق أعدائه، ويقيم المنارات من جماجمهم[2]. وينبش قبور الحكام في شيروان، وباكو، ويحبس معارضيه – كما حدث لحسن كيا – في أقفاص حديدية[3] لكي تعتريهم حالة نفسية يموتون على إثرها.

وقد وصل تطرف إسماعيل إلى حد أنه عندما تسلط على ملوك شيروان قال لجنوده: "ما دام أهل شيروان أعداءً لأسرة الرسالة - يقصد الأسرة الصفوية – فأقوالهم نجسة فالقوهم في الماء حتى الجمال والخيول والبغال"، يقول صاحب فارس نامه : "كلما كان قواد القزلباش يتقدمون لم

---

(1) روضة الصفا، محمد خواند مير، ج8، ص16 طبعة ايران 880 ه.
(2) حبيب السير، غياث الدين بن همام الدين، ج 4، ص 513، طهران 1271ه.
(3) روضة الصفا، ج 8، ص 16.

يكونوا يتوقفون عن ارتكاب الظلم حتى سجستان؛ وبعد أن تسلطوا عليها أخذ جنودهم بأهلها أخذًا شديدًا في أموالهم وأرواحهم فهاجر جمع من رجالتها كما يقول صاحب إحياء الملوك.

امتدت مظالم الشاه إسماعيل الأول إلى أنه بعد أن هزم جيش الوند ميرزا وَلَّى وجهه شطر تبريز معملًا في أهلها القتل العام على الرغم من أنهم لم يقاوموه، بل إنه نبش قبر السلطان يعقوب وكثيرًا من الأمراء الذين كانوا قد اشتركوا في حرب "دربند" وأحرق عظامهم واستحيا ثلاثمائة امرأة وأعدم ثمان مئة من أعوان الوند ميرزا، وارتكب ما لم يوصف من الفجائع. ونحن لا نتصور أنه منذ زمان "نيرون" حتى الآن أحدًا بقسوته وعنفه في الدنيا على هذا النحو[1].بما يُعد حالة سلبية تحسب عليه.

وفي بعض التواريخ الصفوية غالبًا ما يغضون الطرف عن قساوات الشاه إسماعيل إما توافقًا أو مجاملة. ومن هنا يمكن أن يُعد من حسني السيرة طيبي السمعة، بينما الحال على العكس، وإلا ما كانت غارات الأوزبك على خراسان وتخريبات العثمانيين في آذربيجان علامة على أعمال هذا الملك[2]. ثم إن تصرفه مع آل مشعشع يثبت جانبه السلبي أيضاً.

يقول" اللورد ستانلي اف اندرلي" في مقدمته على كتاب رحلات الإيطاليين في إيران "وحّد إيران المملكة، وأحيا القومية الإيرانية، وبسط حدودها فوصلت إلى حدود نهر جيحون بقتل محمد خان شيباني المتخلص بـ (شيبك) زعيم الأوزبك في الحرب التي وقعت بينهما 916 هـ / 1510م

(1) تاريخ اجتماعي إيران، مرتضى راوندي، جـ 2، ص381، انتشارات اميركبير، 1975م.

(2) الدولة الصفوية، احمد الخولي، الصفحات الخاصة بالشاه إسماعيل.

والدول الإسلامية المحيطة بحجة ما أسموه ادعاء خرق المذهب، بينما هـو في جوهره اتجاه قومي وسياسي، فما كان مـن الـشاه إسـماعيل إلا أن قـرن أهدافه بالقومية وأصابه التوفيـق الـذي لم يـستطع نـادر شـاه أفـشار مـن بعده أن يتوخى هذا الموقف.

وقد تبادل كل من سـليم الأول العـثماني وإسـماعيل الـصفوي مكائـد تجل عن الوصف إزاء السنة والشيعة، علاوة على أنـه أمـر بـإخراج جثـث أولئك الذين قتلوا أباه حيدر وأحرقها، وارتكـب كثـيراً مـن الفظـائع، فكـان يجبر أهل الأقاليم عـلى أن يرتـدوا العمامـة ذات الأشرطـة الحمـراء عنـوان جيشه القزلباشي فيخضعون لأوامره. كما حدث في تبريز مثلاً خشية منه.[1]

من هنا نجد أن ما يحدث في العالم الإسلامي من فتن مذهبيـة تـؤدي إلى اتساع الهوة في التخلف والعنف وقتل الكثير من أتباع المذهب الـسني والشيعي كما يحدث في دول مثـل العـراق وباكـستان ولبنـان وافغانـستان ومصر واليمن وسـوريا الآن وغيرهما،إنمـا هـو نتـاج نزيـف بـدأ في العـصر الصفوي بما يحسب عليه.

فالمسلك الذي سلكه إسماعيل مع قتيله شـيبك خـان جعـل صـاحب (تاريخ عالم آراى صفوى) يصف الفاجعـة قـائلاً: إنـه أرسـل كـل جـزء مـن جسمه إلى إقليم، ومـلأ جمجمتـه قـشًا. وأرسـلها إلى الـسلطان بايزيـد بـن محمد العثماني، أما كأسها فقد طلاها وعـلى حـسب قـول (حـسن روملـو) صاحب كتاب أحسن التواريخ فقد جعل منهـا قـدحًا يتـسلى بـه في حفـل الشراب. وأرسل بأخبار الفتح إلى الأنحاء كافة.كان الـشاه إسـماعيل يغـدق

(1) تاريخ سياسي واجتماعي ايران ازمـرگ تيمـور تـا مـرگ شـاه عبـاس، ص 152، ابـو القاسم طاهري، 1391هـ ق.

الأموال والغنائم والأسلاب على أتباعه، فعودً الناس على قبض الثمن بدلاً من القناعة التامة والثبات على العقيدة فأوجد بذلك مبدأ الاعتماد على أهل الثقة وليس الكفاءة بما أثر من بعده في أيديولوجية الدول الإسلامية. يقول تاجر من فينيسيا عن مدى عشق الأتباع وانضباطهم الزائد تحت إمرته: يقدس المريدون - وبخاصة الجنود منهم - هذا الصوفي[1] (أي الشاه إسماعيل) كما يقدسون الله. والبعض منهم يخوض الحروب دون سلاح معتقدين أن المرشد الكامل يحرسهم في ميدان الحرب[2]. وقد نسوا الله في جميع أنحاء إيران، وما من اسم على الألسنة سوى إسماعيل.

وإذا نظرنا إلى ما سبق، سنجد أن هذا الأمر قد تأصل في العصر الصفوي بما أوجد حالة من التوجس في نفوس حكامها. هذا التوجس أخذ صورًا مختلفة بعضها يمكن عنونتَه بحالات نفسية بما يجعل ظاهرة سلبية مشتركة بينهم فمثلاً:

1. فترة حكم الشاه طهماسب الأول الطويلة وما يسودها من مهادنة مع الأعداء، وتردد في التعامل مع رؤساء القزلباش، وحذر في التعامل مع الدول الغربية، وتدعيم للفكر الشيعي ألاثني عشرى.
2. فترة حكم الشاه إسماعيل الثاني القصيرة ورغبته في عودة المذهب السني ثانية إلى إيران، وجهوده في هذا الصدد. والنتيجة قتله على يد رؤساء القزلباش.

(1) اقترنت الدعوة الصفوية منذ نشأتها على يد الشيخ صفي الدين بأنها دعوة صوفية أي عنوانها الزهد، ومن هنا استقطبت عدداً كبيراً من الأتباع، وصار لقب صوفي علامة الملوك والأتباع.

(2) الدولة الصفوية، احمد الخولي، ص 45.

3. فترة حكم السلطان محمد خدابنده الكفيف ومن بعده اختلاف أولياء العهد وما اعتراها من نفوذ النساء ممثلا في مهد عليا زوجته وبريخان خانم أخته، واختلاف أولياء العهد: أبي طالب ميرزا وحمزه ميرزا، وتدخل الوزراء.
4. فترة حكم الشاه عباس الذي ازدهرت الدولة الصفوية في عهده غير أنه دفعها إلى الانهيار من خلال قسوته وحبس أولياء العهد في الحريم بل قتلهم إلى حد أنه لم يجد في أواخر حياته من يصله لولاية العهد.
5. الدولة الصفوية بين عباس وظهور الأفشاريين وهي فترة ملؤها الصراعات الداخلية والخارجية شملت خمسة ملوك انتهت بآخرهم الشاه طهماسب الثاني.

كان إقرار المذهب الشيعي ونشره عنوانًا على العصر الصفوي من أوله إلى آخره، اللهم إلا فترة التردد التي سادت حكم إسماعيل الثاني وحكم نادر شاه أفشار برغبته فى أن يصير ملكًا. ومع هاتين الحالتين تأكد بقاء هذا المذهب إلى يومنا هذا. فها هو القاضي نصر الله الزيتوني يخرج الجزء الأول من كتاب قواعد الأحكام الإسلامية لجمال الدين علي بن ألمطهر الحلي الذي أصبح الأساس في تعاليم الشيعة[1]، وها هو الشاه طهماسب الأول يجمع فقهاء المذهب الاثنى عشري حوله؛[2] مثل الشيوخ : على منشار، عبد الله الشوستي،

---

(1) أحسن التواريخ، حسن روملو، ج1. ص 61، مطبعة عبد الحسين نوايي، طهران، 1357ش.

(2) تاريخ إيران از ازمنه باستاني تا سال 1316 هـ عبد الله رازي همذاني. ش، تهران 1317 هـ. ش.

ميرزا خان الشيرازي، بهاء الدين محمد، لطف الله طبس، حسن خان الاسترابادي.

فصارت هذه مثلبة لاصقة بها على الرغم أن طهماسب الأول أحسن وفادة بايزيد بن سليمان القانوني في إيران، وإن كان في رأينا بعد نظر منه يدلل على ذكاء فطري ؛ فهو كمن رمى عصفورين بحجر: الأول مهادنة الدولة العثمانية المتسننة وصولاً إلى ما يبتغي من التقاط أنفاس أو عقد اتفاقية، والثاني - وهو الأهم - التقريب بين المذاهب الإسلامية. وهذا هو ما نسعى إليه في الوقت الحالي بل قد بُذلت الجهود في سبيله لكن دون جدوى.

إذن طهماسب الأول باستقباله همايون بن بابر ملك الدولة التيمورية في الهند دون أن يوجهه إلى اعتناق المذهب الاثنى عشرى يدل على ما ذهبنا إليه، ويؤكد في الوقت نفسه أن الملوك القدامى كانوا أحصف في تقديرهم السياسي. ومعنى ذلك أن الدولة الصفوية لها دخل بالعلاقات الدبلوماسية بفكرها المصلحي ومفهومها الأيديولوجي، وهذه تحسب لها من وجهة القانون الدولي إيجاباً.

وربما كان ذلك إرهاصًا جعل الشاه إسماعيل الثاني يخاطب الدولة العثمانية في مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية، إلى حد القول بأنه كان يميل في داخله إلى المذهب السني، فشرع يعاقب من يسيء بالكتابة على الحوائط أو في المجالس إلى العشرة المبشرين بالجنة، ويرسل العسس لملاحقة من يخالف الأوامر الملكية، غير أنه أعرض عن ذلك لضغوط من رؤساء القزلباش من ناحية، وأن الدولة العثمانية لم ترسل سفيراً لتهنئته

بالعرش من ناحية أخرى، وكان هذا من باب الخطأ منها، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! إن الأخذ والرد في مسألة ما لابد من افسادها.

وقد صادف العصر الصفوي فترات وجد الإيمان طريقه إلى نفوس البعض من ملوكها كما حدث بالنسبة للسلطان محمد خدابنده أي محمد عبد الله[1]. إذن لا يمكن أن نقيس على أحد بأن هذا مؤمن وذلك كافر فالإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل كما يقول المصطفى عليه السلام.

فهو يستفيد من خبرة وحنكة وزراء مجربين، مثل: أمير زكريا وزير الآق قويونلو وخواجه كمال الدين محمد الساغرجي وزير آل تيمور بعد أن دخلا في طاعته.[2]

وقد قسم إسماعيل الأول إيران من الناحية الإدارية إلى قسمين:

أ – الولايات الحكومية التي تدار بإدارة حاكم عليه تجهيز الجيش، وتوفير الأمن في الولاية، وتدبير الأعمال الإدارية وقيادة الجيش في وقت الحرب.

ب – الأملاك الحكومية ويشرف عليها موظفون وهم مكلفون بإرسال الأموال إلى الخزانة الملكية لتأمين نفقات المملكة.

وقد شعر إسماعيل بخطورة الصلاحيات المعطاة لحكام الولايات فحدد هذه الصلاحيات، ورغم هذا خرج الحكام عن نطاق صلاحيتهم بمجرد وفاة إسماعيل، خصوصًا أن الأوضاع الاجتماعية في إيران لم تكن

---

(1) الدولة الصفوية، أحمد الخولي. ص 179.

(2) تشكيل شاهنشاهي صفويه، نظام الدين مجير شيباني، چاپ اول. ص 133، 134 وحدت ملى تهران1364ه.

لتساعد على تقبل مثل هذا الوضع. كما تسبب بعد المـدن عـن العاصـمة، ووجود عادات وتقاليد متباينة لدى الأجناس المختلفة في ضـعف الحكومـة المركزية؛ ولذلك اجتهـد إسـماعيل في تنفيـذ أحكـام القـرآن الكـريم، وأمـر بإنـشاء المـدارس الدينيـة في أصـفهان وشـيراز لتـدريس المبـادئ والأصـول المذهبية[1].

(1) المرجع السابق، صـ 135.



تسلط القزلباش

القزلباشية في الدولة الصفوية شأنها شأن الانكشارية في الدولة العثمانية. هي جيش الصفويين القبلي، ومن ثم كان من الطبيعي أن تفرض نفوذها على الملوك خصوصًا الصغار لدى توليهم ولاية العهد أو العرش.

يقول حسن روملوفي كتابه أحسن التواريخ "إنه عندما نزل (الشاه إسماعيل) بـ (ارزنخان) تجمع في مجلسه سبعة آلاف مريد صوفي من قبائل استاجلو، شاملو، روملو، تكلو أوتكه ايلي، ذي القدر، قاجار، ورساق، صوفية قراباغ".

إذن كانت مجموعة من رؤساء هذه القبائل قد اعتنقت المذهب الشيعي من زمن طويل ربما منذ أيام الشيخ صفي، وانخرطوا في زمرة (صوفيان صاف)[1] أو مريدي شيوخ الصفوية الخلص الشجعان إلى أن جاء الشيخ جنيد وولده الشيخ حيدر، ونهضا يغامران من أجل الوصول إلى السلطة اعتمادًا على فدائية وإخلاص هؤلاء القوم، وأضافا لقب السلطان[2] على لقبيهما الموروث (الشيخ).

والشيء الذي كان يجمع بين أفراد طوائف القزلباش المختلفة منذ زمان الشاه إسماعيل الأول ويوحد بينهم هو حب الشاه والتضحية في

---

(1) عرف المريدون من هذه القبائل بـ (صوفيان صاف" أي الصوفية المخلصين).

(2) ربما جاء ذلك من جنيد وحيدر تدعيمًا لنفوذهما وتنمية لدورهما ومنافسة للدولة العثمانية التي عُرف ملوكها بلقب (السلطان) فقد كان إسماعيل الأول حفيد جنيد وابن حيدر ينظم الشعر بالتركية فتخلص "خطائي" دعاية ودعوة منه للشيعة المقيمين في الأناضول أن يتركوها ويرتحلوا إلى إيران دعماً لجيشه.

سبيل مقاصد المرشد الكامل المقدسة التي تنحصر في تدعيم الكيان الصفوي، وإقرار المذهب الاثنى عشري[1].

يقول تاجر إيطالي – كان في إيران في بداية أمر الشاه إسماعيل –إنه مثل أبيه وأجداده، ويشير إلى إرادة وتضحية ومعنوية طوائف القزلباش في سبيله: "يقدس المريدون - وبخاصة الجنود منهم - هذا الصوفي (أي الشاه إسماعيل) كما يقدسون الله، والبعض يخوض الحروب دون سلاح معتقدين أن المرشد الكامل يحرسهم في الميدان.

وإذا كانوا قد توفروا على هذا المبدأ في عصر إسماعيل الأول فذلك لأنهم في حالة الجدة، وهي حالة إيجابية من وجهة نظرهم، وإلا لسلبنا كل شخص حقه والله وحده هو القادر على ذلك وفقًا لنظرية التدافع في القرآن الكريم!

أما وقد تحولوا بالتدريج إلى قوة مادية، فقد فقدوا هذا المعنى واتجهوا إلى المادة. وهذا هو ما أدركه الشاه طهماسب الأول سريعًا. وقد يكون توزيع العطايا من أسلاب وغنائم ومناصب في الجوانب العسكرية والمدنية عليهم سببًا في هذا التحول السلبي استنادًا على أن إسماعيل كان يرتفع بقبائل القرلباش على الإيرانيين – أصل القومية الإيرانية – أنفسهم، فقد كان يرى في ذلك ردًا لجميل قبائل القزلباش التركمانية الأصل.

وجد طهماسب نفسه – وهو الذي تولى العرش صغير السن في مأزق ما أنزل الله به من سلطان من حيث التعامل مع القزلباش في تحولهم وتعلقهم بمباهج الدنيا، فاتخذ لنفسه أسلوبًا

---

(1) تاريخ زندگاني شاه عباس أول، نصر الله فلسفي، ج1، ص 165، انتشارات نگاه، 1319ه .

جديـدًا هـو أسـلوب المتفـرج عـلى مـشاحناتهم وصراعـاتهم الدنيويـة حتـى يقـصيهم أو يقـضي رؤسـاؤهم عـلى بعـضهم الـبعض. هـذا مـن ناحيــة، ومــثلاً مــن ناحيــة أخــرى كــان طبيعيًــا أن يكــون رؤســاء القزلبـاش قـد سـيطروا عـلى أزمـة الأمـور لـدى تـولي طهماسـب – صـغير الــسن – عــرش إيــران مــما أدى إلى اســتفحال نفــوذهم وترســيخ تواجـدهم، فظهـر مـنهم رؤسـاء قبيلتـي تكلـو واسـتاجلو وتقاسـموا المناصـب[1]، ولكــن سرعــان مــا دب التنــاحر بيــنهم طمعًــا في هــذا المنــصب أو ذاك، فوصــل الأمــر إلى الــصدام المــسلح - وهــذا شــأن القبائـل المتبدلـة دومًـا.- وانقلـب هـذا الـصدام في بعـض الأحيـان إلى طهماســب نفــسه[2]. وعهــد إلى حــسن خــان شــاملو بمنــصب أمــير القزلباش.

ففـي العـام الـسابع مـن حكـم طهماسـب قـام مـن يُـدعى آلامـه سـلطان تكلـو أمـير أذربيجـان بحركـة تمـرد[3]، وادَّعـى حـق الوكالـة أو النيابــة عــلى الــسلطنة الــصفوية، وشرع في محاربــة طهماســب، ولمــا هــزم لجــأ إلى الــسلطان ســليمان القــانوني، وحرضــه عــلى مهاجمــة إيران[4] فوافقه واتجه إليها برفقة آلامه.

تـسببت حركـة هـذا المـدعي في أن ينـسلخ عـدد كبـير مـن رؤسـاء القزلبـاش مـن تبعيـتهم للـشاه الـصفوي ليلتحقـوا بمعـسكر الـسلطان

---

(1) روضة الصفا، جلد هشتم ص 41، 45 .

(2) روضة الصفا: جلد هشم ص 46

(3) روضة الصفا جلد هشم ص 83 وما بعدها

(4) زندگاني شاه عباس أول، جلد أول، ص 174 م.

العـثماني[1] ولعلنـا نجـد في ذلـك قمـة النفـاق والتمـرد وضـعف العقيـدة الــذى حــل برجــال هــذه القبائــل. ففــي عــام 949 ه / 1534م أراد حـسن خـان شـاملو وهـو الـذي عينـه طهماسـب في منـصب أمـير الأمـراء مــن أن يــضع الــسم في طعــام الــشاه طهماســب بمعاونــة واحــد مــن ندمائه ليتسنى له تنصيب أخيه سام ميزرا ملكًا مكانه[2].

وعلى الرغم من مفاسد رجال القزلباش، وانسلاخ بعضهم من التبعيـة الـصفوية، وتـآمر الـبعض الآخـر ضـد زعـيمهم المـذهبي والـدنيوي؛ فـإن طهماسب كان يتجاهل مثل هـذه الأمـور أحيانًـا أو يجـد أنهـا قـد تـصون دولته مـن شر المتنـازعين عليهـا فهـي تـساهم في القـضاء علـيهم بطبيعـة الحال.

وفعلاً وقع الـصراع وبالتـالي الـصدام بـين طـائفتى اسـتاجلو وشـاملو، واشتعل هذا الصدام بسبب الخلاف بينهم عمن يتولى منصب ولاية العهـد في أخريات حياة طهماسب[3]. هل إسماعيل ميزرا أو حيدر ميزرا؟ ونتيجـة لهذا الحدث صمم رجال طائفة استاجلو القزلباشـية عـلى أن يحولـوا دون اختيار إسماعيل ميرزا وليًا للعهد؛ خـشية أن يـبطش بهـم جميعًـا إذا صـار

---

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2) المرجع السابق: ص 175، حاشية 4.

(3) أنجب طهماسب من نسائه العديدات 12 ولدًا أكبرهم محمد المعـروف بــ محمـد خدانبده وإسماعيل وكلاهما مـن أم واحـدة، ومـراد، وحيـدر الـذي قتـل بأيـدي القزلباش بعد وفاة أبيه، . وسليمان وقتل بأمر أخيـه إسـماعيل، ومـصطفى وقتلـه إسماعيل أيضًا، ومحمـود وقتـل بـأمر وإسـماعيل أيـضَا، أمـا مقـلى ضـحية أخيـه إسماعيل أيضًا، وعلى وقد سمل إسماعيل عينيه، وأحمد وقتله إسماعيل، وزيـن العابدين، وموسى.()عالم أراي عباسي، ص 124 – 137. وزند گاني شـاه عبـاس أول جلد أول ص 12 وما بعدها، حاشية 1.

ملكًا وخاصة أنهم كانوا يتولون أهم الوظائف القيادية في المجالين المدني والعسكري.

اشتد الصراع بوفاة طهماسب الأول وتولي ابنه إسماعيل الثاني الحكم الذى سجنه أبوه في قلعة قهقهه عشرين عامًا، وتخلص من محبسه بمساعدة بعض رؤساء القزلباش، وتخطيط أخته الذكية بريخان خانم رغم انقلابه عليهم فيما بعد.

كان من الطبيعي أن يتوجس إسماعيل الثاني خيفة من رؤساء القزلباش، فتغيرت سياسته تجاههم، وشرع فى ضرب بعضهم ببعض بأن يقتل من يراه – من وجهة نظره – خطرًا عليه أو سمل عيني من يدّعي الوصاية عليه مثلما فعل مع خليفة الخلفاء حسين قلي[1]، واستقطب إلى جانبه غازي بيك من طائفة ذي القدر وعلي قلي بيك من طائفة شاملو وغيرهما.

غير أن رغبة إسماعيل الثاني في إعادة المذهب السني إلى إيران ثانية بعد طول غياب أثارت حنق زعماء بعض طوائف القزلباش، فعقد رؤساء التركمان والتكهايلي اجتماعًا بحكم توليهم المناصب القيادية في البلاط والدولة،

ناقشوا فيه عقيدة الشاه السنية. والواضح أن تصرف رؤساء القزلباش باختيار حسن ميرزا - الابن الأكبر لمحمد شقيق إسماعيل المتعصب لتشيعه ملكًا بديلاً عنه لم ينشأ أصلاً لكون حسن من رجال

---

(1) الدولة الصفوية، أحمد الخولي، ص 146.
زندگانى شاه عباس اول، ص24.

المذهب الشيعي المتعصبين بقدر ما نشأ عن رغبة خفية من رؤساء القزلباش في استعادة نفوذهم[1].

ونتيجة لهذه الحادثة فقد إسماعيل الثاني الثقة في قادة طائفتي تركمان وتكه ايلي، وعاد يعتمد على أعدائه القدامى من رؤساء طائفة استاجلو في المناصب الرئيسية، وبدأ يتراجع في الوقت نفسه عن المجاهرة بالعقيدة السنية خوفًا من بأسهم، وإرضاءًا لهم، وتخفيفًا من ثورة الناس ضده ومنهم الكثير من أفراد القزلباش، وأبعد علماء السنة عن البلاط لتجنيبهم خطر اعتداء المتعصبين من الشيعة، وأضاف إلى السكة هذا البيت:

- إذا كان لنا أمام من المشرق حتى المغرب فهو علي وآله بالتمام.

وقد اختلفت الروايات في شأن موته، إلا أن الثابت هو أن رؤساء القزلباش كانوا قاسمًا مشتركًا فيها. وهذه حالة سلبية للدولة في أيام إسماعيل الثاني بالنظر إلى الاعتماد على فريق دون فريق.

ورد في واحدة من الوثائق المتصلة بموت الشاه إسماعيل الثاني، أنه بعد موته، جمعت پريخان خانم سبعة من رؤساء القزلباش، ونصحتهم بأن يطرحوا العداء المستحكم بينهم جانبًا، وألا يفعلوا ما من شأنه أن ينتهي لصالح العثمانيين، ويكون مدعاة لسرورهم، الأمر الذي قد يؤدي إلى انقراض الدولة الصفوية، وفعلاً وافقها هؤلاء الرؤساء – ربما لأنها شخصية

(1) سبق أن ذكرنا أن بعض رؤساء القزلباش قد انصرفوا في أكثر من مناسبة عن عقيدتهم الشيعية بعد وفاة الشاه إسماعيل الأول عندما بدأ حرصهم على مظاهر الحياة ومادياتها يتصاعد في أول حكم الشاه طهماسب الأول. كما رأينا كيف انسلخ البعض منهم من تبعيته للمرشد الكامل أي الشاه الصفوي، وانضموا إلى معسكر السلطان سليمان القانوني.

نافذة في الدولة وعنيـدة أو ربمـا لأنهـا امـرأة ذكيـة ذات دلال أو ربمـا لأن الطوائف القزلباشـية تتـأثر بكـلام امـرأة – وأقـسموا عـلى سـلطنة محمـد خدابنده وفي رائينا أن هذه حالة إيجابية مـا دامـت قـد انتهـت باسـتقرار الأمور حتى ولو إلى حين.

إذن بدأ حكم محمد خدابنده للدولة الصفوية بداية قزلباشية بفعـل أنهم أصحاب الفضل، فشرعت زوجتـه مهـد عليـا –باعتبـار كـف بـصره – تدير الأمور وتوزع المناصب على أعوانها من رؤساء القزلبـاش[1]. وقـد أدى هذا الفـساد النـسائي إلى حـدوث اختلافـات ومنازعـات كبـيرة بـين رؤسـاء القزلباش وخاصـة أن الـسلطان محمـد كـان يـسترضى هـذه الطائفـة عـلى حساب تلك، وكذلك العطاء للبعض دون الآخر، ويردان مـا اقتطعـه الـشاه طهماسب من رواتب رجال القزلباش، ويصدران أوامر سـلطانية متناقـضة، وقد أدى كل ذلك إلى إضعاف الحكومة المركزية[2].

ومن ثم؛ لم يمـر وقـت طويـل حتـى واجهـت الدولـة فـوضى داخليـة واعتداءات خارجية بفعل صراع القزلباش الذين انتهزوا فرصـة إصرار مهـد عليا على الانتقام من قتلة أبيها ميزرا عبد اللـه خان الذي كـان يحكـم في مازندران موطن أجـداده عـلى أيـام الـشاه طهماسـب الأول. وتمكنـوا مـن التسلل إلى فراشـها وقتلهـا في الأول مـن جـمادى الثانيـة 987هــ / 1589م وهي نائمة بجـوار زوجهـا الكفيـف، بـل قتلـوا أمهـا العجـوز، وجمعًـا مـن حاشيتها، وأعيان مازندران، وأعملوا السلب والنهب في مقتنيـاتهم، وظلـت

(1) ايران در زمان صفويه، ص 43، ص 44، وزندگانى شاه عباس أول: جلد أول ص 4.
(2) زندگاني شاه عباس أول، جلد أول، ص 41.

الفوضى تسود حتى المساء[1]. ولم يخرج السلطان مدة قصيرة من ديوانه احتجاجًا على ما حدث من رجال القزلباش الذين صارت إليهم الأمور هم والوزير سليمان ووزعوا حكم الولايات عليهم[2].

بلغ عداء رؤساء القزلباش من طوائف تركمان وتكلو وذي القدر أن تحفظوا على أخيه الأصغر طهماسب ميرزا لتنصيبه ملكًا على العراق العجمي والاستقلال بجزء كبير من إيران[3] كما حدث بالنسبة لأخيه عباس ميرزا في خراسان قبل ذلك.

وقد وصل الأمر ببغي رؤساء القزلباش أن قتلوا الوزير سليمان هو وولديه في حديقة زاغان بهراة، ويقول بعض المؤرخين إنهم قتلوه في حضور حمزه ميرزا ولي العهد وصهر الوزير[4].

ولم يكن حمزة ميرزا بالشخص الذي ينسى الانتقام من قتلة أمه، ولم يكونوا هم- أيضًا- بالذين يطمئنون إليه. وخوفًا من أن يدركهم تهوره المعروف، سبقوه بأن اتفقوا مع خدا وردي الأرمني الأصل والمعروف بـ (خودي) والذي كان يعمل دلاكًا خاصا له على قتله، فطعنه عدة طعنات قضت عليه.

---

(1) من هؤلاء محمد خان تركمان، قلي بيك افشار قورجي باشي قور خمس خان شاملو، شاهرخ خان ذو القدر مهر دار، حسيب خان شرف الدين اغلي تلكو، بيره محمد خان استاجلو.

(2) هذه سنة الحركات التي تنشأ راغبة في استتباب الحكم لها عبر التاريخ.

(3) بدأت هذه الخلافات عندما رفض رؤساء القزلباش الاشتراك في تجهيز الجيش الصفوي من أجل مواجهة العثمانيين في زحفهم صوب آذربيجان، واستحكمت وتعقدت باعتماد حمزة ميرزا ولي العهد على طوائف استاجلو وشاملو دون غيرهم.

(4) "زندگاني شاه عباس أول، جلد أول، ص 75 وما بعدها

هكذا استفحل خطر القزلباش الذين باتوا يوجهون الأمور، وصدع السلطان محمد لهم، ولم يجد بدًا من مجاراتهم، فاستدعاهم إليه، ودعاهم إلى ترك الخصومة، غير أن قتلة حمزه ميرزا كشفوا النقاب، وطالبوا بتعيين أبي طالب ميرزا وليًا للعهد مخالفين رأي السلطان، علاوة على استغلال طوائف القزلباش كف بصره[1]، وأخذوا يتلاعبون بمصير الدولة الصفوية بما مثلّ حالة سلبية في مسيرة الوسط منها، وبخاصة إذا أضفنا خطر العثمانيين عليها[2].

وبشيوع تنصيب أبي طالب ولاية العهد، ظهر العصيان في كل مكان من جانب طائفتي تركمان وتكلو المعارضة لطائفتي شاملو واستاجلو، واعتبر رؤساء هاتين الطائفتين أنفسهم من أنصار عباس ميرزا - الشاه عباس الكبير – وأعلنوا التمرد في كل من كاشان وأصفهان وتبريز. فانتقل السلطان إلى هذه الجهات لإخماد التمرد، وسيطر على أصفهان التي انقسمت فيها طوائف القزلباش إلى فريقين أنزلا بها خسائر كبيرة.[3]

كان البعض من رؤساء تركمان وتكلو قد أسرع بإبلاغ عباس ميزرا والمؤيدين له يعرضون عليهم الخدمات المادية والمعنوية لأحقيته في ولاية العهد، ودعا مرشد قليخان الوصي على عباس إلى مجلس في قصر السلطان

(1) اشتغل السلطان محمد بالعبادة بعد أن أصيب بالعمي عام 985 هـ / 1577م . ومن ثم أطلق عليه (خدابنده) أي عبد الله.

(2) الدولة الصفوية تاريخها السياسي والاجتماعي، علاقاتها بالعثمانيين، ، ص 178 .

(3) أبلغ فرهاد باشا قائد الحملة العثمانية على آذربيجان رؤساء القزلباش بقوله: إن مواصلة الحرب ليست في صالح إيران فالبلاط العثماني يعلم اختلاف رجال القزلباش جيدًا.

محمد بقزوين حضره رؤساء القزلباش[1]. وفي هذا المجلس خلع السلطان محمد نفسه من السلطة بأن وضع التاج الملكي على رأس ابنه عباس. ومنذ ذلك التاريخ أصبح الشاه عباس أشهر ملوك الدولة الصفوية فاستعادت عافيتها بما يمثل حالة إيجابية تمت على يد القزلباش بإجماعهم على هذا الملك الذي ارتفع بالدولة بعد أن هوت إلى الحضيض.

وبالنظر إلى تلاعب رجال القزلباش بمصير الدولة الصفوية من حيث تأييد هذا الأمير أو تنصيب ذلك أو خطف الثالث حتى أن ألسنتهم بدأت تطال شخص السلطان نفسه، فكانوا يسخرون منه، وينشدون الأغاني التي تتضمن التهكم عليه، ومنها ما قالوه مثلاً أثناء هجوم العثمانيين على آذربيجان مخاطبين به السلطان محمد "لقد خربت تبريز وتركتها للسلطان مرادا!"[2] على طريقة أهل هذا العصر.

شيء طبيعي من أي حاكم قوي مثل عباس أن يبدأ عصره بتشتيت قوى القزلباش، وأن ينزل بهم التفرق إضعافًا لهم كما حدث بالنسبة للانكشارية في أواخر عصر الدولة العثمانية على يد محمود الثاني؛ فقد تعهد عباس بعد تنصيبه بقتل وصيه مرشد قلي خان رئيس طوائف استاجلو، واكتفى بهزيمة على قلي خان رئيس طوائف شاملو في الحرب

---

(1) في أيام حكم السلطان محمد خدابنده تكاثرت طوائف القزلباش واختلطت. وبدأت كل مجموعة تكون لها وضعًا معينًا بحيث أننا نجد أن عدد هذه المجموعات قد تجاوز الثلاثين في بداية حكم عباس تمامًا بما يشابه وضع الخوارج في بداية الحكم الإسلامي.

(2) زندگاني شاه عباس، نصر الله فلسفي، جلد أول، ص 86 حاشية 1 .

التـي دارت بيـنهما، عـلى الـرغم مـن أن هـذا الـوصي هـو الـذي رتـب لـه الجلوس على العرش.

كانت هذه رسالة موجهة إلى أفراد القزلبـاش كافـة بـضرورة الانتبـاه، فلم يكن فى أول عهده مجالاً للاستقواء أو التراخـي. مثـال ذلـك أنـه قـضى على بعض الخانات والولاة الذين لهـم تـاريخ في مقاومتـه وتـاريخ مـسيرته القاسية في التخلص من كثير من أمراء البيت الصفوي.

هذه القسوة البادية من عباس في أول عهده جعلت أفـراد القزلبـاش يخشونه فالمثل يقول: "لا يفل الحديد إلا الحديـد".ومـن هنـا شـكل بـديلا عنهم بجماعة عُرفت باسم (شاهـسيون) وهـم المكلفـون بالمحافظـة عـلى حياته، ومتغلغلون في صفوف الجيش.

وإذا أمعنا النظر في القائمتين اللتين أوردهما اسكندر بيك منشي مؤرخ الشاه عباس في كتابه عالم آراي عباسى بأسماء الأمراء، نلاحـظ المـدى الـذي وصل إليه تدهور نفوذ القرلباش قواد الجيش القدامى. ففي القائمـة الأولى نجد أن عدد الأمراء 114 كلهم من قادة القزلباش، وفي الثانيـة يـصل عـدد الأمـراء إلى 90 مـنهم 35 مـن رجـال القزلبـاش و34 مـن القبائـل الإيرانيـة والكردية واللورية ثم 21 من غلمان الشاه. وبذلك لم تعد الأمور في أيديهم كما كانت.

وبذلك اختفى نفـوذ القزلبـاش بالتـدريج إلى أن انتهـى بنهايـة عـصر عباس الكبير، بما جعلنا أمام حالة إيجابيـة عمـلا بالآيـة القرآنيـة: "يـا أيهـا الذين آمنوا أطيعوا الـلـه وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم"، وإلا ما تـوفر للدولة الصفوية التقدم والازدهار في عصر هذا الملك.

غلبت الأحداث في الفترة اللاحقة بعصر عباس الملوك الضعاف والتي نحت فيها الدولة الصفوية نحو الزوال. بمعنى أننا لا نستطيع القول بأن القزلباش استعادوا دورهم لضعف الدولة من ناحية، وأنهم تفرقوا في معارك داخلية وحروب خارجية من ناحية ثانية، ووجد في إيران من هم أقوى منهم كالأفغان مثلاً من ناحية ثالثة.

وختام القول أن القزلباش بقدر ما أفادوا إيجابًا في بدايات حكم الصفويين فقد أضروا سلبًا في أواخره.



السياسة الداخلية

مـن إيجابيـات الدولـة الـصفوية أنهاعمًقـت منـذ قيامهـا الاهـتمام بالداخل والنظـر في أحـوال الرعيـة. وهـذا عـلى عكـس الكثـير مـن الـدول الأخرى في إهمالها الداخل والتغافـل عـن الرعيـة. فعنـدما كـان إسـماعيل الأول في تبريز جاءه أمير سلطان موصولو وديو سلطان روملـو حـاكما فـاي وبيخ وأبلغاه أن فوينال سلطان شاملو حاكم خراسـان لـيس عـلى مـستوى المسئولية، فإن قحطًا شديدًا قد أصابها، أمر بتعيـين ابنـه طهماسـب البـالغ مـن العمـر عـامين أمـيرًا عـلى خراسـان مـع وصي ووزيـر إمعانـا في قيمـة الولاية[1]. فكان ينظر إلى الرعية نظرة عطف، ويـوزع علـيهم الأمـوال، وإذا ما ظفر في حرب فلهم النصيب في الغنـائم والأسـلاب. قـد يقـول قائـل: إن هذا من باب تجميع الأتباع من حوله وهو يناضل من أجل التأسيس، نعـم قد يكون هذا مقبولا، ولكن حكم اللـه في الأرض"ولولا دفـع اللــه النـاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض".

خلف طهماسب الأول أباه إسماعيل وهو ولد صغير، وكـما رأينـاه بعيــد النظــر في سياســته الخارجيــة وعــلى نفــس الفكــر في الــسياسة الداخلية، فهو يتقصى شئون الرعية مدفوعًا في ذلك بالرغبة الملحة لدى الطبقات الـدنيا في الـزود عـن المـذهب. ودليـل ذلـك قولـه في تذكرتـه المعنونــة باســمه "وقــد وجــدت مــن الأولى النظــر في أحــوال العجــزة والمساكين ورعاية أمورهم فهم الذين تجمعـوا في مـرو مـن أجـل دفـع الأوزبــك"[2]. ثــم إنــه أصــدر أمــرًا بتخفيــف الــضرائب التــي كانــت

(1) قصد ملوك الصفوية من تعيين أبنائهم صغار الـسن حكامًـا عـلى الولايـات الكبـيرة وعليهم أوصياء ويساعدهم وزراء إشعار الداخل والخارج بأهميـة هـذه الولايـات حدودية كانت أم استراتيجية وهذا مفهوم إداري نتبعه اليوم.

(2) تذكرة طهماسب: ترجمـة مـصطفى شرف، رسـالة ماجـستير – آداب عـين شـمس، غير منشورة، ص 17.

تتحملها الطبقات الدنيا، وقام ببعض التغييرات في المناصب الهامـة في الحكومة والبلاط والديوان.

ولكون طهماسب حريصًا ومترددًا تتملكه الوَسوَسـة، فلـم يكـن مـثلا يسمح لوزير أن يـصرف مـالا دون إذن منـه، كـما كـان يعـد أكـثر الأشـياء نجسة، ولم يكن يأكل طعامًا في مجلس[1].

يؤكد ذلك قول البدليسي في كتابه شرف نامه: "إنه عندما أمرني الشاه إسماعيل الثاني بجرد خزينة والده طهماسب، وجدت أنـه بقـى منهـا 380 ألف تومان من الذهب والفـضة نقـدًا و600 قالـب مـن الـذهب والفـضة و800 غطاء مذهب للرأس و2000 قطعة حرير و3000 ملبس مـن قـماش غال وأسلحة ومعدات لـ 300 فـارس،1320 ناقـة وحـصان عـربي، ولم يكـن وصل عندئذ خراج آذربيجان وشروان وأران وبعض الولايـات الأخـرى لمـدة تسع سنوات"[2].

ويضيف "الـساندري" سـفير فينـسيا في إيـران عـلى قـول البدليـسي[3] عندما يصف شخص طهماسب وفكره فيذكر أنه كان متوسط القامة وقوي البنية وجميل الوجه يضع همه في إرضاء خاطر النساء والاحتفاظ بالذهب والفـضة، لئـيم وخـسيس؛ مثـل التـاجر في البيـع والـشراء، ومـع أن هـذه الصفات تستوجب النفور فإن احترام الشعب بالنسبة للملك وصل إلى حد لا يمكن تـصديقه.ونحـن بـدورنا نـضيف أن هـذه الـصفات سـاعدته عـلى التوفيق في إدارة شئون البلاد الداخلية.ومن ثم فإننـا لا نـستطيع أن ننفـي

---

(1) زندگاني شاه عباس أول جلد أول، ص 16 و 17.
(2) شرف نامه، شمس الدين البدليسي، ص 576، 1599م.
(3) البدليسي كردي الأصل.

عن طهماسب أنه كان يمتاز بحماسة وطنية صادقة، وربما استبان ذلك من خلال تقصير يد الأجانب عن إيران فلم

نشهد في عصره رغم طوله ظهورا للأجانب في إيران كما شاهدنا في عصر أبيه القصير. ثم إن ما تميز به من تردد ساهم معه في التدقيق الإداري بما يحفظ للدول هيبتها.

لكل ذلك نجد أن الحالة الداخلية كانت مستقرة في عصر طهماسب دعمتها فترة حكم الشاه إسماعيل الثاني القصيرة 984 – 985 هـ من حيث أنه كان يتصور نفسه عادلاً، ولذلك فهو يوقع أوامره بالعادل، ويتخلص في شعره بـ "عادلي" ويفرض غرامة مالية على حاكم الولاية التي تتعرض فيها قافلة تجارية لسرقة أو نهب. فقلت السرقات إلى حد كبير، وتمتعت إيران في مدة حكمه القصيرة بأمن جزئي. ولم يكن أحد يجرؤ على المعارضة أو ممارسة الظلم، كما امتنع قطاع الطرق عن مزاولة نشاطهم مما يمثل نوعًا من الإيجاب الذي تفتقده بعض الدول في وقتنا الحالي[1] فمصر مثلا تعاني فقدان الأمن لسنتين خلت منذ ثورة 25 يناير2011 م وكذلك العراق الذي فقد الأمن لسنوات بعد الاحتلال الامريكي وكذلك ليبيا واليمن والجزائر وسوريا.

ولو أن إسماعيل لم يمت سريعًا، ووصل إلى الحد الذي عاشه الملوك الآخرون، ربما كان أكثر الملوك الصفويين شهرة، ولتخلف عنه كثير من الأعمال، ولكن لأنه لم يكن متقيدًا بأعمال غير مرغوب فيها من مخلفات أجداده وآبائه فقد اشتهر بين الناس بالميل إلى التدين[2]. هذا وبموت الشاه

---

(1) زندگاني شاه عباس أول. جلد أول، ص 32.

(2) تاريخ پانصد سالة خوزستان. نقلاً عن مرتضى راوندي في تحولات اجتماعي ايران، ص 393.

إسماعيل الثاني دخلت إيران حقبة أقل ما توصف بها أنها حقب الاضطراب والفوضى[1] ذلك أن النساء واضطلاع رؤساء القزلباش والوزراء بأدوار خلافية

مع هذا الأمير أو ذاك من خلال قبليتهم الخشنة إلى حد معارضتهم السلطان نفسه وإشعال فتن داخلية تلتهم البناء الداخلي المهلهل والمحاط بالأعداء من الناحيتين الشرقية والغربية،وإلى حد أنه نتيجة لعدم كفاية السلطان محمد خدابنده في إدارة أمور الدولة اتحد كل من عليقلي خان شاملو ومرشد قلنجان استاجلو وصمما على اختيار عباس ميرزا ملكًا فحكم من عام 996 – 1039 هـ. ورب ضارة في نظر المؤرخين نافعة، فقد استطاع هذا الملك انتشال الدولة الصفوية من وهدتها في الداخل والخارج بما يمثل محمدة كانت في مضمونها من السلبيات التي يمكن أن تفت في عضد أي دولة. غير أن اللـه سلم بدفع الأضداد لبعضهم كما يقول القرآن الكريم، ورب ضارة نافعة فعلا.

صحيح أن الدولة الصفوية قد وصلت في عصر عباس إلى ما لم تصل إليه في عصور سابقيه ولاحقيه من القوة السياسية أو التفوق العسكري أوالازدهار الاقتصادي من خلال إدارةٍ سوية. من هنا تغالى المؤرخون الإيرانيون معاصرين أم لاحقين في مدحه وتقديره، واعتبروه نموذجًا صادقًا للنخوة ورعاية المواطنين.

---

(1) في أيام السلطان محمد خدابنده كثرت طوائف القزلباش واختلطت وانقسمت وبدأت كل مجموعة تكوًن لها وضعًا خاصًا، بحيث إننا نجد أن عدد هذه المجموعات قد فاقت الثلاثين في أول عصر الشاه الكبير، وأن فرهاد باشا القائد العثماني كتب لهم أن البلاط العثماني يعرف اختلافهم.

وشرح الحالة الداخلية في عصر عباس سيطول، وبادئ ذي بدء فنحن نعتبر صاحبها من الإيجابيين الفعّالين، وبغض النظر عن التجهيزات العسكرية التي أعدها، والإصلاحات التي قام بها عن طريق الأخوين شرلي اللذين كانا قدما إلى قزوين عام 1598م، وأعلنا أنهما في خدمة الشاه عباس.

وبذلك وجدت نهضة في إيجاد جيشين: واحد من المشاة حملة البنا وآخر من الغلمان الأشداء. كما تم إدخال عناصر أجنبية من الخرجيين والأرامنة[1] بعد اعتناقهم الإسلام لما يتميزون به من ذكاء. كما تم تأسيسمصنع لصنع المدافع. وكان هذا نقلة كبيرة في الظفر بالمعارك داخلية وخارجية من ناحية، ودليل على حسن الإدارة من ناحية أخرى.

استطاع عباس أيضًا تقليم أظافر القزلباش ومن هم في بوتقة خدمته إلى حد أن إسكندر بيك منشي صاحب كتاب عالم آراى عباسى وغيره من المؤرخين يقولون: لم يتبق منهم أكثر من ثلاثين ألفًا هم الذين كانوا يتقاضون رواتبهم من الخزانة[2]. أما أولئك الذين يتطوعون للجيش فهم (الشاهسيون) يعني أصدقاء الملك أي حرسه الخاص الذي لا يلوون على شيء إلا حياة الملك وهذه خصيصة حرص عليها من جاءوا بعده ومن دول غير الصفوية، ولا نستطيع أن ننفي عنه هذا الإيجاب فالوزير في يومنا هذا له حرسه. ومن ثم فقد كانت سياسة داخلية إيجابية فيما يتصل بالناحية العسكرية والأمنية صقلتها الإدارة.

---

(1) تاريخ اجتماعي ايران، مرتضى راوندي، ص 397.

(2) تاريخ اجتماعي ايران، مرضى راوندي، ص 397.

نتجه الآن إلى حالة الإيجاب التي اتخذها عباس من الناحية الزراعية، فقد أوجد نوعا من التناسب في ملكية الأراضي الحكومية أو (الملكية الديوانية) وتلك التي بيد الأهالي، وبذلك انحصرت مكانة موظفي الدولة في الأغلب الأعم في إشرافهم على الأراضي المذكورة.[1]

وقد دفع هذا إلى استتباب الأمن فليس ممكنًا أن يتحقق تقدم دون أمن، فعلى طول فترة حكمه الطويلة تتمتع الناس بالاستقرار، فسقط مثلا قطاع الطرق واللصوص، وتوقف الحكام وقواد الجيش في الأقاليم عن التجاوز في حقوق العامة فخراج سوق التجارة والصناعة مخدوم بما بذله الشاه عباس في تحسين الطرق وتعمير المدن وإنشاء النزل والأربطة، فارتبط الناس بالعمل والكفاح وتنمية الثروة، وسرعان ما تحول العمال من الفقر إلى الرغد[2]، وكانوا في الدول الأخرى ينظرون إلى العمال والفلاحين الإيرانيين على أنهم أحسن حالا منهم. ويكفي أن الشاه عباس أصدر أمره بإعفاء أهل أصفهان العاصمة من الضرائب لمدة ثلاث سنوات[3].

وكانت حكومة الشاه عباس تقاوم قطاع الطرق بكل شدة فساعد هذا علىسهولة تنقل القوافل. ومن أمثلة الطرق التي استحدثتها الدولة توسعة الطريق الذي يمتد بمحاذاة ساحل بحر الخزر بطول 270 كم[4].

وحتى تمتنع السرقة تمامًا ألزم الشاه عباس حاكم وأهل الإقليم الذي تقع به السرقة دفع مال التجارة لصاحبها[5]، ونحن بدورنا نؤيد هذا

---

(1) الدولة الصفوية، أحمد الخولي، ص 193.

(2) زندگانى شاه عباس، نصر اللـه فلسفي، جزء 2، ص 36 وما بعدها باختصار.

(3) تاريخ اجتماعي ايران، مصطفى راوندي، ص 401.

(4) تاريخ إيران ازدوران باستان تاپايان سده هيجدهم، ج 2، ص 551 وما بعدها

(5) تاريخ اجتماعي إيران، مصطفى راوندي، ص 403.

الحسم الإيجابي ما دام هو في صالح المجتمع، وقد شهد السياح والتجار الأجانب جملة على أمن الطرق الإيرانية في عهد الشاه عباس – يقول بترو دلاواله في الجزء الثاني من رحلته، ص 358 إن إيران على عكس الدولة العثمانية لا يوجد بها لصوص أو قطاع طرق.

ويقول أنتونيو دوكوا: كان الشاه عباس يعاقب قطاع الطرق بأشد العقاب، فالبعض تقطع رؤوسهم وتلقى من أعلى بناء في المدينة وتدفن في جانب الطريق فتجف الجثة ويغطى بالجير حتى يكون عبرة لغيره[1].

وبينما كان صنيع الشاه عباس مع اللصوص وقاطعي الطريق على هذا النحو، كان يلجأ إليهم في أوقات أخرى لمساعدته في معاركه مثلما حدث في حربه مع جغال أوغلى القائد التركي، وبذلك أوقع الهزيمة به[2].

كان من حسن إدارة عباس لمملكته قربه من العامة فقد تابع سيرة أجداده في هذا الصدد. ومن هنا حظي بمكانة بينهم في الوقت الذي كانت حكومته المركزية تتعامل بقوة مع الطبقات الأخرى إذا ما أخطأت هذه الطبقات. ومن ثم أثارت هذه الرعاية المفرطة للعامة حفيظة أحد معاصريه فيقول: "إن الشاه عباس يُعد العجزة والفقراء أبناءه وهم يعتبرونه أباً لهم فيما كان يعد المتنفذين والأغنياء آباءه فيأخذ من أموالهم نصيبًا في حياتهم وعندما يموتون يرثهم كابن بما يعود بالنفع على خزينة الدولة"[3]، كما كان يستقبل أي فرد من ذوي الحاجة دون واسطة أو

---

(1) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(2) في هذه المعركة طلب من بيرام تكله قاطع الطريق المشهور المساعدة. ونحن نلاحظ أن هذا الأسلوب يتبع الآن.

(3) بترو دلا واله، رحلات، ترجمة شجاع شفا، ص31 وما بعدها.نقلاً عن تاريخ اجتماعي ايران ص 403

تشريفات. وعندما نصحه البعض من وزرائه وخاصته أن يتوخى الحـذر في استقبالهم حتى لا تتعرض حياته للخطر يقول: اللـه هو الحافظ.

من هنا فإنه بهذا الأسلوب حـق لإيـران أن تعتـبر أزهـى دول العـالم، وهكذا كان العهد بها في عهد الشاه عبـاس الكبـير بعـد حقبـة اشـتد فيهـا الظلم وعم الفساد وتعاظم القهر واستفحل ثراء الطبقات الحاكمة مما زاد في عدد الفقراء وذوي الحاجة، بما يمكـن معـه اعتبارهـا نـصف الـدنيا كـما وصفوها، فالعامة يعملون يأكلون طيبًا ويلبـسون حـسنًا حتـى أن سـبائك الذهب تزين صدور النساء ويقول "شـاردن" في رحلتـه إذا كانـت حكومـة إيران حكومة مستبدة وبعيدة عن أساليب التحضر نكـون قـد بعـدنا عـن الإنصاف والحقيقة"[1].

ونحن بدورنا نرى أن يكون الحاكم شديدًا في إدارتـه وخاصـة في بلـد ذات عرقيات مختلفة ومعتقدات متنوعة شرط أن يتوخى العـدل قـدر مـا يستطيع إلى ذلك سبيلا وإلا انفرط العقد حوله وباءت الأمور بالفشل.

معنى ذلك أن الإيجـاب كـان عنـوان عهـد طويـل مـن حيـاة الدولـة الصفوية من خلال حكم عباس، ولكن "مـا طـار طـير وارتفـع إلا كـما طـار وقع" فقد كان فكر عباس ينتابه توجس لخوفه من أفراد أسرتـه فحبـسهم في الحرملك فلم يتعودوا الحياة الـصلبة أو يتربـوا التربيـة الملكيـة. ومـا أن واتته سكرة الموت لم يجد غـير حفيـده صـفي مـيرزا الـذي لم يـدرك شـيئًا، فأخذت الدولة الصفوية تتهاوى نحو الزوال منذ أن مات عباس الكبير عام 1030 هـ / 1629م متأثرًا بنزيف الدم[2].

---

(1) جون شاردن: سياحتنامه شاردن، ترجمة محمد عباس، ج 5، ص 44 – 345.

(2) لمزيد من التفصيلات في هذا الصدد راجع نصر اللـه فلسفي في زنكاني شـاه عبـاس أول جزء دوم، وانظر : بديع جمعه في الشاه عباس الكبير.

نستطيع أن نسمي الفترة اللاحقة بعباس فترة سلبية في مجموعها أمنًا وإدارة وسياسة بمفهومها الواسع، وأنها جمعت أسباب سقوط هذه الدولة، وقد شهدت هذه الفترة حكم خمس شاهات ودامت لأكثر من قرن، وقامت على أنقاضها دولة الأفشاريين التي أسسها نادر شاه أفشار.

هذه الحقبة إن لفتت النظر في شيء فلم نجد سوى تبادلات الانهيار فصفي الذي بدأها كان قاسي القلب دون كفاءة أو ثاقب بصر، ولم يكن يفيق من الخمر، وقتل بعض المفكرين[1] حتى النساء لم يسلمن من أذاه والشاعر يقول:

إذا كان رب البيت بالدف ضاربًا..... فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

تولى العرش بعده الشاه عباس الثاني[2] فعمل على تخفيض الضرائب إرضاء للشعب، وأصدر أمرًا بمنع الشراب، ولكنه لم يكن قرارًا حاسمًا إذ سرعان ما عاد إليه، وتجاهل أمور السلطة، ومجالسًا بسببه من يستحق ومن لا يستحق.

كان عباس الثاني مكترثًا بالتعمير، وقد عاصره من العلماء محمد تقي مجلسى، محسن فيضي، حسين خوانساري وخليل القزويني. غير أنه أصيب بالاكتئاب ومات بالقرب من دامغان، ودفن في قم.وقد خلف سليمان أباه عباس، وكان قد قضى ردحًا من عمره في دائرة الحريم فلم يتمكن من استيعاب أمور الملك فهو من أسوأ سلاطين الصفويين، فهو من ناحية عربيد مكترث بالمحظيات، ومن ناحية أخرى يفضل نصائح بطانته على

(1) محمد السعيد عبد المؤمن: دراسات في الحضارة والأدب الصفوي ص 226 إلى 232.

(2) يذهب البعض إلى أن الشاه عباس الثاني كان حاكمًا صالحًا لكننا نرى غير ذلك؛ فقد تولى الحكم وهو صغير، فسيطر عليه المنتفعون، وجعلوه مجرد رمز، فهم أنفسهم متعارضون. كل ما يمكن قوله إن الميل إلى العدل والجنوح إلى الرحمة من الممكن أن تكون من مكونات شخصيته.

نصائح المجربين[1]. وقد تطورت الأمور إلى الأحسن لدى تولي شخص اسمه شيخعليخان منصب الوزير الأول منذ عام 1079 –1101 هـ / 1668 – 1689 إذ أدار شئون البلاد بكفاية وحزم بينما كان الشاه حبيسًا في دائرة الحريم مريضًا بالنقرس ومعتمدًا على وزيره.

نشَّط الوزير حركة التجارة مع الدول الأجنبية، ونشطت حركة العمران في أصفهان ونمت السياحة من خلال ذلك. وهذا في نظري إيجاب كان يمكن أن يكون أعلى درجات وأوفر نتائج أي إنه إيجاب ناقص.

برحيل سليمان شاه: وقع الاختيار على ابنه سلطان حسين لرغبة في نفس البطانة، إذ إنه ضمن سبعة أولاد، فقد كانت تدرك أنها لن تحصًل شيئًا إذا ما تولى أخوه مرتضى ميزرا مكانه، ذلك أن أباه كان يرى فيه التعقل والكفاية. ومن ثم رشحه لولاية العهد[2].

من هنا تمكن الأفغان من إيران واحتلوا أصفهان العاصمة مما جعله يذهب إلى قائدهم محمود ويسلمهم التاج، فدخل العاصمة في 14 من المحرم عام 1135 هـ / 1772م وأقام في قصر (چهل ستون)، وأعلن نفسه ملكًا على إيران[3].

---

(1) تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بولكمان، تعريب ومنير البعلبكي وآخ، ص 5، دار العلم للملايين، بيرت2005.

(2) رضا بازوكي: تاريخ ايران ازمغول تا افشاريه، رض بازوكي، ص 366 وما بعدها، شرك چابخانه فهنگى، تهران1314ه.

(3) تاريخ ايران، لمجموعة من المستشرقين الروس الترجمة الفارسية كريم كشاورز، ص581.

إذن ثبت بالدليل القاطع سلبية هـذا الملـك الـذي حـرم مـن التفكـير السليم، وبعد عن حصافة الـرأي. أفـسدته المحظيـات، وراحـت الخرافـات تسود عصره.

خلـف طهماسـب الثـاني أبـاه والـروس يحتكـون بـإيران مـن ناحيـة، والأفغان يسلبونها طاقاتها من ناحية أخرى. وهو بهـذا بـين شـقي الرحـى. وفي هذا الوقت هام على وجهه في مختلف الأنحـاء يقـصد جمـع العـسكر لمقاومة الأفغان بل ويعلن عن اسـتعداده للتنـازل عـن الولايـات الـشمالية لروسيا. فساءت الأمور إلى حد أن نادر شـاه اسـتغل الموقـف وأعلـن قيـام دولته.

إذن سلبية الحالة الداخلية هي التي سـلمت الدولـة الـصفوية التـي كانت علامة فارقة في تاريخ العالم عندئذ إلى مهب الريح، وربمـا كـان تـولي ملوكها العرش صغارًا هو السبب الـرئيس في ذلـك؛ فالقاعـدة لـدى الفـرق المذهبية تفرض تولي الأبناء الخلافة مكان آبائهم. وهذا أمر ربما هو حادث في بعـض الـبلاد حتـى يومنـا هـذا. بمـا هـو واقـع في دول عديـدة بتغلـب الإيجاب أو العكس.

العلاقات الخارجية

شهدت الدولة الصفوية حالة إيجابية في السياسات الخارجية منذ نشأتها، بل قبل ذلك بقليل عندما تزوج الشيخ حيدر أبو إسماعيل من "مارتا" أخت "دسبينا" وسماها صاحب سلسلة النسب "باجي آما" وصاحب حبيب السير "حليمه بيكي آقا" وجرى على هذا الاسم التركمان[1]. وفي نخجوان استقبل الشاه إسماعيل رسل حاكم شيروان الذين عرضوا عليه إقامة تحالف معه تدعيمًا للعلاقة التي تربط الاثنين.

من هنا نشأت ظاهرة إيجابية للدولة الصفوية منذ نشأتها وهي التعاون بمفهومه الواسع وليس التحالف فالقرآن يقول : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" ويقول أيضًا في آية أخرى "وتعاونوا على البر والتقوى" ونحن في هذا الصدد نجد أن إسماعيل حفظ القرآن، وأنه أمر بتنفيذ أحكامه، وهكذا كان شأنه لدى الحديث عنه.

إذا أخذنا علاقات إسماعيل بالبرتغال التي كانت سيدة البحار عندئذ، وحاولت أن تستفيد من الطريق البحري الجديد الذي يصل إلى آسيا بمنأى عن الخطر العثماني، وتفتح مستعمرات لها في الهند ومختلف أنحاء آسيا،كان الصدام لابد حادث مع الدولة الصفوية بغية احتلال جزيرة هرمز بما ييسر لها إخضاع الخطوط التجارية للخليج.

في هذه الأثناء سافر ألبوكرك القبطان البرتغالي من هرمز إلى الهند، ليتقلد منصبه الجديد حاكمًا عليها، وهناك جاءه مندوب من جانب إسماعيل، وعقدت اتفاقية بين الطرفين تنص على [2]:

---

(1) الدولة الصفويه، أحمد الخولي ص 67.

(2) تشكيل شاهنشاهي صفويه، ص 231.

أ – تصاحب قوة بحرية برتغالية حملة إيران على البحرين وقطيف.

ب – تتعاون البرتغال مع إيران في إخماد الحركات التحررية في بلوجستان ومكران.

جـ - تتعاهد الدولتان في مواجهة الدولة العثمانية.

د – تصرف حكومة إيران النظر عن جزيرة هرمز وتوافق على أن يبقى حاكمها تابعًا للبرتغال، وألا تتدخل في أمورها الداخلية.

والجدير بالذكر أن رغبة الشاه إسماعيل في تقوية العلاقات مع الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية لم تصل إلى نتيجة ؛ لصعوبة المواصلات من ناحية، ولأن سفراء الجانبين غالبًا ما كانوا يقعون أسرى في أيدي الأتراك العثمانيين أو يقتلون من ناحية أخرى[1].

وعن العلاقات السياسية بين إيران وجمهورية فينيسيا، فقد مثًل إغلاق الطريق الرئيسى للتجارة بين أوروبا وآسيا لطمة شديدة للدول المستفيدة من نقل البضائع بين البحرين الأبيض والأسود مثل فينسيا والبندقية، وكانت هذه الدولة عندئذ قوة بحرية لا يستهان بها، ولها علاقات اقتصادية مع ولايات آسيا الصغرى. وقد أدت الاتفاقية التي عقدت بين أوزن حسن والدولة العثمانية في شوال عام 883 هـ / ديسمبر 1487م إلى وجود حالة جمود في العلاقات بين فينسيا وإيران طوال وقت الصراع الذي شهدته الأخيرة بين المدًعين للتاج والعرش فيها.[2]

غير أن هذه العلاقات عادت من جديد بين الدولتين بظهور إسماعيل الأول الذي اجتهد في تقويتها بقصد الوقوف في وجه الدولة العثمانية. فشرع يرسل السفراء إليها طالبًا الهجوم على العثمانيين من البحر على أن

(1) تشكيل شاهنشاهى صفويه، ص 540.

(2) تشكيل شاهنشاهى صفويه، مرجع، ص 222، 223.

يقـوم هـو بـالهجوم مـن الـبر شرط ألا تـسترد فينيـسيا قواعـدها في البحـر الأبيض، وكانت هذه مثلبة من إسـماعيل في علاقاتـه الخارجيـة فالمـسلم لا يستقوى بالأجنبي على أخيه المسلم وإن اختلف المذهب.

معنـى ذلـك أن العلاقـات الخارجيـة إبَّـان الدولـة الـصفوية شـهدت إيجابيات وسلبيات في الوقت نفسه. غير أنه ينبغي أن نعـترف أن المـصالح كثيرًا ما تفرض نفسها. وهذا في التاريخ القديم والوسيط والحديثوالمعاصر.

غير أن جهود إسماعيل باءت بالفشل لدواع تخص فينـسيا[1]. فـأخفق الـلـه عز وجل جهوده بالسلبية. وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

ومما لا شك أن فقدان الولايات الغربية الايرانية بعد هزيمة إسماعيل في موقعة جالدران مثل ضربة سياسية لـه.وقـد دعـاه ذلـك إلي التفكـير في التقارب مـع الـدول الأوربيـة المعاديـة للدولـة العثمانيـة. وكانـت أسـبانيا والمجر ضمن هذه الـدول التـي قـصدها شـاه إيـران، فبعـث برسـالتين إلي شارل الخامس ملك أسبانيا ولويس الثاني ملك المجر في شوال عـام 929 هــ / أغسطس 1523م.

في هاتين الرسالتين طلب إسماعيل عقد معاهدة صداقة وتعـاون مـع أسبانيا والمجر بل فكر في عقد اتحـاد بغـرض سـحق الأتـراك فوافـق شـارل الخامس على قبول الاقتراح وبعث بموافقته إلى إيران. إلا أن القدر لم يمهـل إسماعيل لدى وصول رسالة شارل إلى إيران، وخلفه ابنـه طهماسـب الـذي كان صغيرًا فبقيت رسالة شارل دون جواب.

لكن طهماسب الذي خلف أباه لم يكن بالحماس فيما يتعلـق بتقويـة العلاقات مع الدول الأوروبية، فهو أقل رغبة من أبيه إسـماعيل في تـدعيم

---

(1) المرجع السابق، ص 224

العلاقات الصفوية الأجنبية، ولعل ذلك واضح فيما يبدو من المتغيرات السياسية التي وقعت في عصر كل منهما من حيث الصراع مع الدولة العثمانية[1]. فبينما الصراع بين إسماعيل وسليم عنيفًا، وجدت أن هذا الصراع قد انتهى بين طهماسب وسليمان إلى عقد صلح بينهما بحيث أن الرسائل بين الطرفين بدأت تأخذ طابع الاحترام. وهذه محمدة في العلاقات الصفوية العثمانية فكلا الجانبين مسلم.

وليس معنى ذلك أن إيران لم تتصل بالدول الأجنبية في عهد طهماسب فقد كانت جسور الاتصال قائمة وعلى الأخص مع البرتغال، فهي الدولة الأجنبية التي نشأ طهماسب ليجد علاقات أبيه معها، وقد كانت هذه العلاقات أخوية طيبة في ظاهرها بدليل أن ملكها آدم سباستيان" أرسل سفراء من قبله إلى طهماسب مرتين الأولى عام 958 والثانية عام 982 هـ إلا أن طهماسب استقبل سفير البرتغال في المرة الثانية بجمود ونفور، ولم يعطه هو وأعوانه الترخيص بالعودة إلى دياره حتى عام 984هـ ذلك أن الموظفين البرتغاليين كانوا يسيئون المعاملة مع أهل هرمز من جهة، ولأن الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا كانت قد أرسلت بالاتفاق مع إيوان مخوف قيصر روسيا وفدًا يمثل شركات التجارة الإنجليزية برئاسة السيد " أنتوني جانكسون " إلى إيران بقصد فتح باب التجارة معها عن طريق روسيا من جهة أخرى. ولكن طهماسب كان يفضل توطيد علاقاته مع البرتغاليين محاولا الاقتباس من الحضارة الأوروبية عن طريقهم، وظل

(1) كانت الدولة العثمانية هي الأساس في تقوية علاقات إيران بالدول الأجنبية منذ عهد إسماعيل، فقد تلاقت سياسة هذه الدول وإيران على تطويقها.

على هذا الاعتقاد إلى ما قبل وفاته بقليل[1]. ولذلك وجدنا طهماسب لم يستقبل مندوب ملكة إنجلترا أو قيصر روسيا على النحو المطلوب[2]، ويقول جانكسون في مذكراته أنه بعد أن خرج من البلاط الصفوي وجد شخصا يسير وراءه ويضع ترابًا من إناء على مكان خطواته.

وما أن تولى عباس الحكم حتى وجدت فترة عامرة بالعلاقات الإيرانية الأجنبية مما يشكل نبراسًا إيجابيًا لبقية الدول في أمر السياسة الدولية. فلا أحد يستطيع أن يعيش بمعزل عما حوله، ولذلك قيل: " ما يستحق أن يعيش من عاش لنفسه. وما ينطبق على الفرد ينطبق على الدول.

لذلك وجدناه يستقبل كلا من (كاكاش وتكتاندر) سفيري الإمبراطور رودلف الثاني، و(جودا) سفير فيليب الثالث ملك أسبانيا والبرتغال[3]، وأرسل (انتوني شارلي) [4]، وحسين بك للسفارة في أوروبا وأمرهما أن يزورا

---

(1) أحسن التواريخ، حسن روملو 45، 459، وتاريخ روابط ايران وأوروبا در دوره صفويه، قسمت أول، ص 17. ومطالعاتي درباب نجرين وسوانح خليج فارس ص 71، 75.

(2) نقلاً عن تاريخ ايران از مغول تا افشاريه، ص 32، حاشية 1.

(3) للحصول على معلومات أوفر فيما يتصل بعلاقات عباس مع الدول الأوروبية. انظر بديع جمعة في كتابه الشاه عباس ص 17 وما بعدها.

(4) هو إنجليزي الأصل، جاء إلى إيران هو وأخوه روبرت ومعهما 26 مرافقًا، وكان أنتونى ذا دراية بفنون الحرب ومعرفة بتصنيع الأسلحة. وبعد أن أحسن عباس وفادة هذا الوفد. وجد قائد الملك ورديخان إمكانية الإفادة من الأخوين أنتوني وروبرت في إقامة مصنع لتصنيع الأسلحة من ناحية، والإشراف على تجهيز جيش منظم مدرب من ناحية أخرى. ولم يصل الأمر إلى هذا الحد فقط بل أفاد الشاه منهما في المهمات السياسية لدى ملوك الدول الأجنبية.() انظر: حسن بيرنيا وعباس إقبال. ص 188.

روسيا وألمانيا وبابا الفاتيكان.وقد رأينا أنه قد عقد اتفاقية صلح في استانبول عام 1021 هـ / 1621م.

وقد تبادل الشاه عباس السفارة أكثر من مرة مع روسيا وهولندا وفرنسا وأسبانيا وألمانيا وإيطاليا. كما حصل تجار كثيرون من دول أروبية مختلفة على امتيازات تجارية في إيران، وكانت هذه الامتيازات مقابل منافع سياسية واقتصادية تحققها حكومة الشاه عباس من منح هذه الامتيازات[1].

وعلى الرغم من كل هذه التسهيلات التجارية، وما انتهت إليه من امتيازات وعقود واحتكارات، فإن إيران لم تكن تابعة تبعية محددة لأي من دول أوروبا لا في عهد عباس، ولا في عهد خلفائه وهذه محمدة ايجابية؛ ذلك أن العلاقات التجارية لم تكن مع دولة بعينها بقدر ما كانت مخصصة لأكثر من دولة.

ومن هنا يمكن القول إجمالاإن العلاقات الخارجية للدولة الصفوية نحت نحوًا إيجابيًا بين المد والجذر بحاسة إيرانية خالصة،ولم يكن ملوكها يكابرون في حسن الوفادة للأجانب دون أن تكون مؤثرة في مصالح إيران ولو بالنذر القليل.

---

(1) تاريخ إيران لمجموعة من المستشرقين الروس الترجمة الفارسية ص 517 وما بعدها.



تسلط علماء المذهب

نشأت الدولة الصفوية - نشأة مذهبية منذ ظهور الشيخ صفي الدين الأردبيلي، وإن كانت هذه النشأة في بدايتها نشأة خفية لم يجاهر بها شيوخها المتعاقبون، وربما كان ذلك لسبب أو آخر فماعلينا !!

غير أن هذه النشأة المذهبية سرعان ما تبدلت إلى تواجد سلطوي عسكري بالتدريج، فما أن أعلن الشاه إسماعيل الأول تأسيس الدولة الصفوية، وتتويجه ملكًا حتى فرض المذهب الشيعي الاثنى عشري بالقوة ودون مقدمات.

والواقع أن هذا التسرع في فرض المذهب الشيعي قد أوجد الكثير من المشاكل، فقد كانت إيران عندئذ سنية المذهب، وإن كانت العناصر الشيعية تتركز في مدن مثل كاشان، قم والري. هذا بالإضافة إلى أن دعايات فرقة الإسماعيلية ودعايات الفاطميين في مصر ودعايات الأسرة الصفوية نفسها ذاتها كانت قد هيأت الرأي العام الإيراني إلى قبول المذهب الشيعي منذ زمن غير بعيد، وأن الإيلخانين بدورهم قد ساهموا في تمهيد الميدان لهذا الغرض.

وكان رد فعل هذا القرار من جانب إسماعيل عنيفًا لدى الناس حتى علماء الشيعة أنفسهم، فذهبوا إلى الشاه إسماعيل يقولون "إن ثلاثة أرباع سكان تبريز من السنة، ولا يدرون شيئًا عن هذا المذهب الشيعي، ونخشى أن يقولوا لا نريد ملك الشيعة" فأجاب إسماعيل: "لا يهمني هذا الأمر، فالله وحضرات الأئمة المعصومين معي، أنا لا أخشى أحدًا، وبإذن الله تعالى لو قال أحد من الرعية حرفًا، فسأسحب سيفي ولن أترك أحدا يعيش" ثم أمر الخطباء

والمؤذنين بأن يتلوا تشهد الشيعة "أشهد أن عليًا ولي اللــه، حي على خير العمل" في الآذان[1].

وقد استسلم الناس لهذا التعميم على فرض المذهب الشيعي ماعدا البعض الذين لقوا حتفهم على يد إسماعيل. وبذلك تمكن الشاه إسماعيل من فرض المذهب الشيعي بحد السيف. وبدأ إسماعيل يفكر في جلب أتباع الأسرة الصفوية من آسيا الصغرى وممتلكات الدولة العثمانية، فبعث إليهم بالرسل بل إنه كتب إلى السلطان بايزيد الثاني بأن يأمر ولاته بالسماح لمريدي البيت الصفـــــوي بزيارة أردبيل المقر الروحي للصفويين، وألا يضعوا العراقيل أمامهم [2].

ولدى إعلان المذهب الشيعي مذهبًا رسميًا في إيران، كانت الكتب التي تبحث في المذهب الشيعي نادرة، الأمر الذي تعذر معه استيضاح أصوله وقواعده. فأخرج القاضي نصر اللــه الزيتوني الجزء الأول من كتاب قواعد الأحكام الإسلامية لجمال الدين بن على بن المطهر الحلي، وأصبح الأساس في تعاليم الشيعة[3].

وبدأ إسماعيل بعد الجلوس على العرش يفكر في إدارة شئون المملكة، فاختار حسين بك اللــه نائبًا عنه، والشيخ شمس الدين اللاهيجي حاملاً للأختام الملكية ومحمد زكريا وزيرًا له[4].

كان طبيعيًا؛ والأمر كذلك أن يبدأ دور علماء الشيعة في الظهور تزامنًا مع بداية الدولة، ويؤكد وجوده بالتدريج إلى حد تسلطه دون مواجهة

(1) عالم آراى صفوى، ص 64، .

(2) تشكيل شاهنشاهي صفويه. ص 91، مرجع سابق.

(3) أحسن التواريخ . ص 61.

(4) تشكيل شاهنشاهي صفويه، مرجع سابق نفس الصفحة

صريحة، فمن الملوك الصفويين الذين وقع بعضهم تحت تأثيرهم أسماء كثيرة، ولا غرابة في ذلك ما دام الشاه إسماعيل قد فتح الباب، فهو القائل في رسالة بعث بها للسلطان سليم ما معناه[1]:

نحن أناس قد غدا طبعنا ... حب علي بن أبي طالب

عيبنا الناس على حبه ... فلعنة الله على العائب

ففي عهد طهماسب نرى أنه قد أعطى دفعات أكبر إلى الناحية المذهبية، إذ إنه نجح – ولعل طول مدة حكمه قد ساعدته على ذلك – في أن يجمع حوله صفوة من علماء الدين الذين تفقهوا في تعاليم المذهب الشيعي مثل الشيخ علي منشار، وعبد الله الشوشتري، ميرزا خان الشيرازي، بهاء الدين محمد، لطف الله طبس، حسن داود خان الاسترابادي ومحمد على التبريزي[2].

وإمعانًا في ترسيخ عرى المذهب، أمر أبا الفتح الحسيني بإعادة تنقيح كتاب صفوة الصفا لابن البزاز الذي كتبه في زمان الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفي الأردبيلي مع التصرف فيه بالقدر الذي يضمن الإشارة إلى سيادة الشيخ صفي الدين باتصال نسبه إلى الحسين بن على بن أبي طالب[3].

أما إسماعيل الثاني خليفة طهماسب، فقد وقع تحت تسلط الشيخ مخدوم شريفي عالم الدين السني الذي حضه على قتل الأمراء الصفويين مع جمع من رجال القزلباش الشيعة ومعهم جمع من علماء المذهب، فما

---

(1) الدولة الصفوية، احمد الخولي، ص 102.
(2) عالم آري عباسى، ص154-158.
(3) تذكرة طهماسب، ص17 .

كـان مـنهم إلا أنهـم أبلغـوا إسـماعيل بأنـه إذا كـان يرغـب في الاحتفـاظ بالعرش فلابد من قتل مخدوم شريفي، ووضـعوا هـذه الرسـالة في فراشـه، فأدرك أن الفراش ليس آمنًا من خطر معارضيه، فاضطر إلى حبس مخـدوم لإنقاذه وإنقاذ نفسه من القتل، وبعـد مـوت إسـماعيل تمكـن هـذا العـالم السني بمساعدة يريخان خانم التي كانت تثق فيه مـن الهـرب إلى الأراضي العثمانية[1].

وفي الفترة التالية التي تصدرها السلطان محمد خدابنده، فقد كانـت فترة غاصة بالأحداث – كما قلنا – ظهر فيها استبدادان : اسـتبداد النـساء، واستبداد رجال القزلباش، فلم يبد فيها دور واضح لتسلط علماء المذهب.

وبتولي الشاه عباس الكبير العرش، وجـدناه يقتـل الأمـراء المـستبدين خشية على نفسه إذا كبروا، ويتخلص من نفوذ رجال القزلبـاش فـلا عجـب أن ينحى علماء المذهب جانبًا، وقد استقر في ربوع إيران بتقادم العهد.

وما تلا عباس من حقبة زمنية انتهت في آخرها هـذه الدولـة، تراجـع دور تسلط علماء المذهب إلا في عصر الشاه عباس الثاني الذي وقـع تحـت تأثير علماء المذهب خاصة المرجع محمد تقي مجلسي.

---

(1) منظومة فتوح العجم نسخة خطية في مكتبة باريس، نقلا عن زنگـاني شـاه عبـاس اول: جلـد أول، ص 27 ومـا بعـدها: حاشـية 2 مرجـع سـابق. وإذا كـان الـشاه إسماعيل الثانى قد توقف بعـد هـذه الرسـالة عـن مجاهرتـه بالتـسنن، فـإن هـذا الإقدام مـن جانـب بريخـان يـشير في الوقـت نفـسه إلى ميلهـا للمـذهب الـسني، ويدلل فى الوقت نفسه على وجود خلاف مذهبى .



تربية الملوك

جرت عادة الدولة الصفوية على تولية الملوك صغارًا في أعمارهم، فقد نشأت نشأة قل إنها صوفية جمعت حولها المريدين، ومن ثم كـان أخـلاف الشيخ صفي الذي تنسب إليه الدولة يسمون بـ (الخليفـة) كـما يلحـظ في بعض الفرق المذهبية في يومنا هذا[1]. ثم أضيف إلى هذا اللقب صفة (بـير مرشـد أي الـشيخ المرشـد) فـأيقن المريـدون أن التحـول عـن هـذا المـسار المذهبي يدخل في باب الاعتراض على رئيسها مهما كان صغيرًا لدى خلافتـه لمن سبقه.

توافد إذن بتأسيس الدولة عدد من الملوك وهـم يمكـن القـول بـأنهم أطفال فها هو إسماعيل الأول يؤسس الدولـة وهـو في سـن الثالثـة عـشرة. بالقطع تحت وصاية.

يقول "كاترينو زنوسـنو" سـفير فينـسيا في الـبلاط الإيـراني "إن الـشاه إسماعيل صاحب الثلاثة عـشر ربيعًـا الـذي شرع في إقـرار الأمـن في ربـوع بلاده كان حسن القسمات وملكي الطلعة... ولا أدري أي شيء عظـيم ذلـك الذي يختفي في عينيه ويشعر في كل وضـوح إلى أن هـذا الـشخص سيـصير ملكًا عظيمًا يومًا ما. ولم تكن صفاته المعنوية تتباين مع جماله الجـسماني، له ذكاء وافر ومكر ثابت لا يُصدق في هذه السن... ولم تكـن قـوة ذاكرتـه، وسرعة انتقاله ولياقة ذاته لأحد من معاصريه"[2].

---

(1) يلاحظ في خليفـة مـسجد الـسيد البـدوي في طنطـا حتـى الآن أن الخليفـة الحـالي استقال من وظيفة مدرس مساعد بجامعة الأزهر الشريف لكي يتولى خلافة أبيه.

(2) سفر نامة سياحان ايتاليـان در ايـران ص 46 – 48 نقـلاً عـن تـشكيل شاهنـشاهى صفويه، ص 95 .

لا عجب إذن أن إسماعيل سلك وهو في هذه السن الصغيرة عام 905 هـ طريق أردبيل[1] بصحبة سبعة من مرافقيه، وكلما كان يقترب من هـذه المدينـة كـان عـدد مرافقيـه يـزداد حتـى إن هـذا العـدد وصـل إلى ألـف وخمسمائة في بلدة طارم، وهؤلاء المريدون كانوا يدعون إسـماعيل المرشـد الكامل ويتبعوا أوامره وتعليماته بل يـضحون مـن أجلهـا. وبعـد أن وصـل اتساع حكمه إلى شيروان وباكو وقسم من أرمينيـا وآذربيجـان جلـس عـلى العرش في تبريز، وجعل مذهب الشيعة هو المذهب الرسمي في إيران.

أما قولنا في هذه القضية إن الناس كانت عندئذ تتمتع ببنية قويـة في الأغلب الأعم، أما صفات إسماعيل الشكلية ومكوناتـه الفكريـة فهبـة مـن الـلـه، وهكذا يكون الزعماء المؤسـسون. ومـن ثـم فهـي حالـة إيجابيـة لا ننكرها علي إسماعيل رغـم صـغر سـنه عنـد تأسـيس الدولـة كـما وصـفها معاصروه[2].

كان هذا هو الحال بالنسبة للشاه طهماسب الأول الذي طالـت فـترة حكمه إلى ما يزيد على النصف قرن، فقد تولى الحكم وهـو عـلى مـشارف الصبا، ومن ثمتناقض أقوال معاصريـه، وكانـت الدولـة عندئـذ قـد اسـتوى عودها فتحـددت مـشاكلها باتـساع حـدودها، وتنوعـت ضـغوطها بتكـاثر أعراقها.

كان صغر عمر طهماسب دافعًا لكل هذه المشاكل أو قـل المعـضلات التي كبر معها، غير أن مكوناته الفكريـة سـاعدته عـلى النفـاذ بالدولـة إلى

(1) هي المقر الروحي للأسرة الصفوية، وبها قبر الشيخ صفي الذي تنسب إليه الدولة.

(2) حفظ القرآن عندئذ، واسـتدعى معلمـه شـمس الـدين اللاهيجـي، وكلفـه بحمـل الأختام الملكية ومحمد زكريا ليكون وزيرًا له، () الدولة الصفوية، أحمد الخـولي، ص 53.

آفاق غير تلك التي لازمت إسماعيل الأول فوطَّـد أركانهـا داخليًا وخارجيـا بما يحسب له من فكر نظري وتطبيقي لا نستطيع أن نأخذ عليه منه شيئًا فزمانه غير زماننا!!

من ثم فالحالة حقيقة إيجابية في عهد هـذا الملـك. وهـي في الوقـت نفسه تحسب للدولة الصفوية عندئذ وطبقًا لنظرية الفعـل ورد الفعـل أو ما طار طير وارتفع إلا كما طـار ووقـع، كـان تحامـل طهماسـب عـلى ابنـه إسماعيل دافعًا على ضعف الدولة الصفوية في الحقبة التاليـة إذ إن الأخـير انتهز فرصة وفاة أبيه وهرب من القلعة التي كـان أبـوه قـد حبـسه فيهـا، وتولى العرش بمساعدة أخته يرخان خانم التي استعانت برجـال القزلبـاش، وسرعان ما انقلبوا عليه بعد سنة ونصف قضاها في أعمال لـو قُـدر لهـا أن تتم لزادت من إيجابية الدولة الصفوية، ودعمـت التقريـب بـين المـذاهب الإسلامية ولخطت الدولة الإسـلامية خطـوات جـادة إلى الأمـام، غـير أنهـم قتلوه شر قتلة.

فتح هذا القتل بابًا واسعًا لـسلبية الدولـة الـصفوية في هـذه الحقبـة الزمنية التي طالت بـين عـامي 985 هــ / 1577م و 996 / 1587م. وهـي حقبة عُرفت بـصراع النـساء، وعُجـت باقتتـال الأمـراء، واتخمـت بـاختلاف رؤساء القزلباش وامتلأت بالمشاكل الاقتصادية والاختلافات السياسية، ولولا بقية من رمق لكانت الدولة قد توارت من الوجود بالـسلبية التـي وقعـت فيها بعد أن كان من الممكن أن تحدث آثار بعيـدة المـدى في تـاريخ الأمـة الإيرانية إيجابًا بمخاطبته الدولة العثمانية دعوة إلى التقارب الإسلامي.

ازدهـرت الدولـة الـصفوية إيجابًـا بتـولي الـشاه عبـاس الكبـير الحكـم، فأخرجها من الظلمـة إلى النـور حتـى أن صـيتها انتـشر في الـشرق والغـرب في

جميع الأنـشطة إلى حـد أن أصـفهان العاصـمة عُرفـت عالميًاب‍ـ(اصـفهان نـيم جهان,اصفهان نصف الدنيا).

لكن كما قلنا، "ما طار طير وارتفع إلا كما طـار ووقـع"، فقـد دفعـت خشية عباس من الأمراء وتوجسه الخيفة من أن يفعلـوا بـه مـا فعلـه هـو بأبيه أن حبسهم في دائـرة الحـريم، فقمـن عـلى تـربيتهم تربيـة ناعمـة لا تصلح لإدارة الحكم، فما أن احتضر لم يجد من فيه الكفاية لولايـة العهـد؟ سوى حفيده صفيًا الذي لم يكن يدري شـيئًا[1] فأخـذت الدولـة تنـدفع إلى الزوال منذ أن مات عباس 1039 هـ‍ـ 1629م، عـلى أيـدي خلفائـه الـصغار الضعاف.

كان طبيعيًا أن يجد صفي نفسه في معـترك الأحـداث دون مقـدمات، فهو ابن السابعة عشرة من عمره، وأطلق عـلى نفـسه الـشاه صـفي تيمنًـا باسم أبيه الذي قتله عباس.

وقد غلبت الأحداث في الداخل والخارج صفيًا، فمات وهو عائـد مـن مشهد متأثرًا بـالإفراط في الـشراب، ولم يكـن لـه مـن زمـام في إدارة الأمـور مزيدًا على سلبيتها سلبية أخرى بسبب صغر السن.

وقد تبعه الشاه عبـاس الثـاني وهـو في سـن التاسـعة، ومـات في سـن الخامسة والثلاثين، وإذا كنا نركز على الأعمار الملكيـة، فـما ذلـك إلا لتبيـان أن الدولة الصفوية قد ابتُليت بذلك فنجح القليل وفشل الكثير من ملوكها

---

(1) لمزيد من التفصيل في هذا الصدد راجع نصر اللـه فلـسفي في زنرگـاني شـاه عبـاس أول جلد أول . وبديع جمعة في الشاه عباس الكبير.

(2) حسن پرنيا وعباس اقبال، ص607

(3) تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، ص508.

الذين كانوا في نظر مواطنيهم شيوخًا مرشدين لهم الحق في الحكم بسبب هذا اللقب. وعلى الناس الدوران في فلكهم وإن كان ذلك منهم سلبًا.

سار في هذا الاتجاه السلبي الشاه سليمان[2] الذي لم يتمكن من استيعاب منصبه الجديد بما له من مسئوليات؛ لانقضاء أغلب سني عمره في دائرة الحريم، فاعتبروه من أسوأ الملوك الصفوية فهو من ناحية ضعيف النفس عربيد مكترث بالمحظيات، ومن ناحية أخرى يفضل نصائح بطانته على نصائح المجربين[3]، وهذه حالة سلبية إذا تحكمت في حاكم ما.

مات الشاه سليمان تاركًا سبعة أولاد أكبرهم سلطان حسين ميرزا، وقد اختاره الأعيان لحاجة في أنفسهم هي ضعفه وحلمه، فيتمكنوا بذلك من تنفيذ ما يدور بخلدهم من رغبات جامحة على العكس من أخيه مرتضى ميرزا – الذي كان أبوه قد اختاره وليًا للعهد – لما يمتاز به من تعقل وكفاية[1].

كانت فترة حكم هذا الملك هي الحالة السلبية المعقدة التي نستطيع القول معها إنها البداية الحقيقية لانهيار الدولة، ففيها غزا الأفغان بقسميهم الأبدالي والغلجائي إيران، ووصلوا إلى أصفهان العاصمة بما يجعل هذا الملك من أسوأ ملوك إيران. فهو من جهة بعيد عن حصافة الرأي وإمكانية التفكير السليم، ويقضي وقته بين المحظيات والقيان والشراب من جهة أخرى، وقد راحت الخرافات والعقائد الفاسدة تنتشر في عهده.

---

(1) تاريخ ايران إز مغول نا افشارية، رضا پازركي، ص 366 وما بعدها.

أما عن خامس الملوك أو "طهماسب الثاني" الذي صوره نادر شاه أفشار قائد الجيش بأنه لم يعد جديرًا بالعرش وخلعه، فنصَّب ابنه الرضيع عباساً مكانه وهو الذي عُرف فيما بعد بالشاه عباس الثالث[1].

شرع نادر شاه في تقليم أظافر الحكم الصفوي بأن اختاره الحضور في مؤتمره المنعقد في (موقان) ملكًا على إيران بتقويضه عرش عباس الثالث آخر ملوك الدولة الصفوية[2].

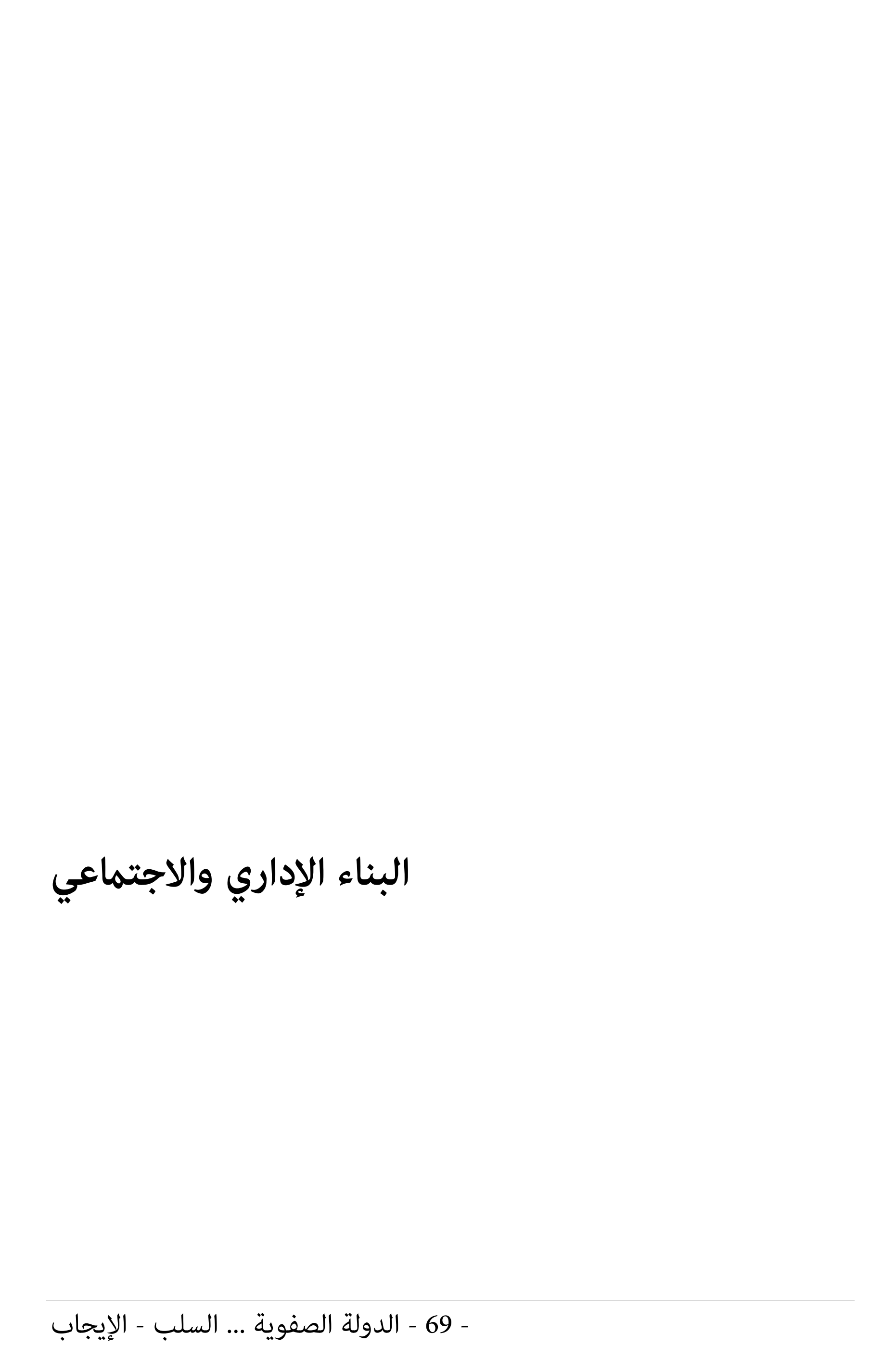
وإذا اعتبرنا فترة التأسيس وما تلاها حتى نهاية حكم إسماعيل الثاني حالة إيجابية فإن فترة حكم دامت حتى تولي عباس الكبير اختلط فيها الحابل بالنابل وسيطرعليها السلب.

كما نجد أن الحالة الإيجابية نفسها في أثناء فترة حكم عباس الكبير تلتها حالة سلبية تمثلت في حكم الملوك الخمسة اللاحقين به. وما ذلك إلا لصغر عمر هؤلاء الملوك من ناحية، وتربيتهم في دائرة الحريم من ناحية أخرى.

---

(1) تاريخ جهانگشاي نادري، ميرزا مهدي خان استربادي، ص 105، انتشارات دنياي، 1180 ش ق.

(2) انظر ما جاء في كتاب الدولة الصفوية، تاريخها السياسي والاجتماعي – علاقاتها بالعثمانيين.عن هذه الفترة ص 209 – 232 .



البناء الإداري والاجتماعي

تمخض تأسيس الدولة الصفوية عن بعض النتائج من أهمها ظهور إيران على نحو ثلاثي الأبعاد نتيجة لإقرار المذهب الشيعي.

الأول: ما وراء النهر.

الثاني: الأراضي الواقعة على الحدود بين إيران وتركيا.

الثالث: إيران.

وكان المقيمون في البنائين الأول والثاني يخالطون بعضهم بعضًا قبل الشاه إسماعيل،كما أن إعلان المذهب الشيعي كمذهب رسمي قلب الوضع الاجتماعي رأسًا على عقب في ذلك الوقت، وأثار سكان الأجزاء الثلاثة ضد بعضهم البعض. وقد منع هذا التباعد بسط الثقافة الفارسية. فعاشت المنطقة بأسرها فترة انحطاط ثقافي.

وطبيعي أنه كلما انحطت الثقافة تزايد الوضع الاجتماعي سوءًا، فما بالنا والوضع الاجتماعي سيء أصلا.

لقد تسلمت إيران تركة اجتماعية ثقيلة من العصر التيموري؛ تجزء سريع لإمبراطوريتهم انتهى بقتل عبد اللطيف فانقضي حكمهم نهائيا في منطقة ما وراء النهر من ناحية، وشد من ساعد التركمان من ناحية أخرى عندما تمكن رئيسهم جهانشاه قراقو يونلو من تدعيم نفوذه في ديار التيموريين بتغيير سلطاتهم وإنشاء كيان جديد لهم واصطدام هذا النفوذ بنفوذ آخر هو نفوذ الآق قويونلو بزعامة أوزن حسن.

اشتد الوضع الاجتماعي ترديا بالتوسع المتزايد لنفوذ الأوزبك في منطقة ما وراء النهر فتقطع بالطبائع المتنوعة والعادات والتقاليد المتباينة لمذهبيات مختلفة وعرقيات متضادة تغذي بعضها بعضًا بالإيجاب والسلب فلم نجد توافقًا بقدر ما وجدنا تعارضًا أدى إلى حدوث المعارك

ووقوع الانتصارات والهزائم وما يترتب عليها من شد وجـذب، ولكـن هـذا حكم الـلـه في الأرض فهو القائل سبحانه وتعالى : "ولولا دفع الـلــه النـاس بعضهم بعض لفسدت الأرض".

فكان أن بسطت الدولة الصفوية جناحيهـا عـلى المنطقـة بانتـصارات وتدافعات جعلت الثقافة الفارسية تعـود إليهـا مـن جديـد بعـد غيـاب لم يكن قصيرًا، ولكـن هـل معنـى ذلـك أن يخفـت الـشد والجـذب في البنـاء الاجتماعي سريعًا؟ الاجتماعيات بحاجة إلى حقب زمنية طويلة لكي تتوافق أو تتنـافر أو تـستدعي رؤى جديـدة. وهـذا مـا حـدث عـلى يـد الدولـة الصفوية.

والواقع أنه لم يحدث تحـول أسـاسي في النظـام الإداري الـذي يحفـظ للوضع الاجتماعي حقه بالجوهر المطلوب حتـى جـاء عـصر عبـاس الكبـير الذي تبدت في عـصره هياكـل النظـام الإداري بوضـوح، ذلـك أن الأجنـاس المختلفة التي تشكل منها المجتمع الإيراني لم تكن تسمح بوجود مثـل هـذا النظام الإداري. وبالتالي لم تبد هذه الأجناس ميلا كبيرًا تجاه فكرة اسـتقرار الأمن والسلم الاجتماعي في إيران، علاوة على أن التقاليد والعادات والنظم المستخدمة في النظام الإداري كان قـد مـر عليهـا وقـت طويـل، وتعرضـت لتغييرات عديدة من جانب أنواع الحكم المختلفة التي تسلطت على إيران طيلة تسعة قرون منذ الفتح العربي لإيران حتى ظهور الدولة الصفوية.

ومن هنا كان تجديد الإدارة-أساس البناء الاجتماعي-التـي تمـت عـلى يـد الـشاه إسـماعيل هـو مجـرد محاولـة لمـسايرة الوضـع الجديـد، فكـان إسماعيل يستفيد في ذلـك مـن خـبرة وزراء مجـربين وحنكـتهم مثـل أمـير زكريا وزير الآق قونويلو، وخواجه كـمال الـدين محمـد الـساغرجي وزيـر

التيموريين بعد أن دخلا في طاعته[1] فقسموا إيران من الناحية الإدارية إلى: القسم الأول: الولايات الحكومية، وهي تلك التي تدار بواسطة حاكم مكلف بتجهيز الجيش في منطقته، وعليه توفير الأمن فيها، وتدبير الأعمال الإدارية وقيادة الجيش في أثناء الحرب.

القسم الثاني: الأملاك الحكومية (خالصجات) ويشرف عليها موظفون (بيشكاران)[2]- هم مكلفون بإرسال الأموال إلى الخزانة الملكية لتأمين مصروفات المملكة.

وقد شعر إسماعيل بخطورة الصلاحيات المعطاة لحكام الأقاليم فحددها، ورغم ذلك خرجوا عن نطاق صلاحياتهم بمجرد وفاة إسماعيل وبخاصة أن الأوضاع الاجتماعية في إيران لم تكن تساعد على تقبل هذه السياسة الإدارية.

كان العامة ذوي حظوة عند الشاه طهماسب من خلال نظم إدارية ساهمت كثيراً في إصلاح البناء الاجتماعي فهو مثلا :

استفادت الحقبة اللاحقة لطهماسب من أسلوبه الإداري في إدارة الدولة خلال فترة الاختلافات التي استبدت بها حتى عصر عباس الكبير، وإن صبغت هي الأخرى بالاضطراب الداخلي ومحاولات التعدي الخارجي[3].

---

(1) تشكيل شهنشاهي صفويه، نظام الدين مجبر شيباني، ص 133، 134.
(2) مفردها مباشر، ناظر رئيس الإدارة المالية في الإقليم.
(3) تذكرة الملوك ص 8 – 9 ويراجع أيضًا إيران در زمان صفويه ص 404 – 410 وكذلك زندگاني شاه عباس أول جـ 2، ص 297، 407 .

اعتدلت الإدارة وبالتالي اعتدل البناء الاجتماعي بل ترسخت وتطورت بما انعكس عليه بالتحسن بل والازدهار الذي استتبع قول شاردن بأن فلاحي أصفهان أكثر رفاهية من فلاحي أوروبا، وازدهرت أيضًا طبقة العمال بوجود فرص العمل المتعددة في إنشاء الأحياء والمساجد والحدائق والجسور والقناطر واتساع مجالات التجارة في الداخل والخارج مما استتبع نظمًا إدارية جديدة تساير هذه النهضة الشاملة، فاستعان عباس الكبير بعدد من المعاونين وزراء وقواد وكتاب أهمهم الذين كان مجلس البلاط يتكون منهم وهم سبعة:

1. اعتماد الدولة الوزير الأول. وهو الشخص الثاني بعد الشاه، كما أنه الرئيس الأعلى لأركان الدولة وعامة أمراء البلاط وجميع أفراد الولايات والمشرف على الأمور المالية والمتصرف في جميع نفقات الدولة، يجلس إلى يمين الشاه، وكان الوزير الأول يوقع القرارات أولا ثم يعرضها بعد ذلك على الشاه لكي يعتمدها[1].
2. ركن السلطنة وهو الشخص الثاني في بلاط الشاه بعد اعتماد الدولة، ويتولى إدارة الحرس الخاص.
3. ركن الدولة أي رئيس غلمان الشاه وهم مجموعة (شاهسيون) المشكلون من جرجيين وشركس وأرمن، وقد أنشئ هذا الحرس للقضاء على نفوذ القزلباش.
4. كبير الياوران، وهو مسئول عن تنظيم مجالس الشاه وتحديد المكان الذي سيجلس فيه كل عضو[2].

---

(1) زندگاني شاه عباس أول: جـ 2 ص 399 مرجع سابق.
(2) بديع جمعه: الشاه عباس الكبير، بديع جمعة، ص 251.

5. قائد حملة الفنادق، وهو قائد الجيش الذي كوَّنه الشاه عباس من الفلاحين وعرب خوزستان. وهم أيضًا للمساعدة في تقليم أظافر القزلباش.[1]
6. رئيس الديوان، ويشرف على جميع قصور الشاه وخزانتها وأملاك الشاه الخاصة، وترتيب ملابسه.
7. كاتب مجالس الشاه، وهو أكثر المناصب احترامًا بعد الوزير الأول، ويطلق عليه لقب "عاليجاه مقرب الخاقان"، ويجلس إلى جوار الشاه في المجالس الخاصة والعامة. ويحاول الجميع كسب ودَّه لمعرفته التامة بجميع أسرار الدولة.

وتجدر الإشارة إلى حقيقة هامة تتعلق بتصريف الأمور. وهي تسلط الشاه وفرديته، فعلى الرغم من أن مجلس البلاط كان يضم كبار رجال الدولة إلا أن رأيه استشاري، وهذا ليس عيبًا في الدولة الصفوية عندئذ لماذا ذلك أن كثرة من دول العالم الحديث مركزية السلطة؟، ومن ثم فمركزية عباس ربما كانت عندئذ في الصالح أي الإيجاب وليس في الطالح أي في السلب.

وإلى جانب ذلك كان الشاه عباس يعتمد على العيون والعسس كما هو معهود في العصر الحديث لإبلاغه بكل ما يدور في أنحاء البلاد[2]. إذن كان الشاه عباس ناجحًا في إدارته للدولة الصفوية، والدليل على ذلك إشادة الأجانب بها وكثرة رحلاتهم إليها.

---

(1) من الملاحظ أن هذه التنظيمات الإدارية تتشابه مع بعض أنظمة الحكم في وقتنا الحالي مع بعد الشقة الزمنية ذلك أن الذهن البشري في فكره واحد. فقط اختلاف الأزمنة والإمكانات.

(2) الشاه عباس الكبير، بديع جمعه، ص 253.

وفي عـصر الـشاه عبـاس لم يكـن هنـاك فـصل بـين ميزانيـة الدولـة وميزانيته هو شخصيًا فهو المتصرف الوحيد ومصادر تمويـل هـذه الميزانيـة ما يلي:

1 – الضرائب التي تحصلها الدولة من الأراضي الزراعية.

2 – الـضرائب التــي تحـصل عـلى الأمـلاك الخاصـة للـشاه نفـسه. كالضرائب على ذوي الدخول المرتفعة والملاك.

3 – ضرائب الجمارك التي تحصل في الموانئ الإيرانية.

4 – ضريبة التبغ، وكانت تدر مبلغًا كبيرًا على الخزانة.

ويذكر أحد المؤرخين أن الدخل اليومي للخزانـة كـان 1200 تومـان تقريبًا بينما الإنفاق 1000[1] بمعنى أن هناك من الفـائض 200 تومـان بمـا يجعـل الدولة في حالة إفاقة دائمة وبخاصة أن الدولة الصفوية قامـت بـدور بـارز وفعّال في تدعيم بل في توسـيع نظـام الوقـف عـلى الأعـمال الخيريـة بمـالم يسبق له مثيل بما إنعكس على نشر الخير بين الناس.

كل هذا الدخل هو الذي جعل نصر اللـه فلسفي- أفضل من أرخـوا للشاه عباس الكبير من الإيرانيين في موسوعته ذات الخمسة أجزاء - ينطق بانــسجام البنــاء الاجتماعــي بمعنــى أن الرعيــة تعــيش في نــسق يقــضي متطلباتها لا يختلف فيها الصغير عن الكبير. ودليل ذلك أن الـشاعر وحيـد القزوينى كان ماهرا في أمور المحاسبة [2].

تشابهت الفترة اللاحقة بموت الشاه عبـاس عـام 1038 هــ / 1629م، وشملت خمسة ملوك - كما سبق ذكره - بالفترة التي أعقبت وفـاة الـشاه

(1) شاه عباس أول، نصرالـلـه فلسفي، جزء 3 ص 362 – 366ـ 368 .

(2) وحيد القزوينى بين الإبداع والحقيقة، آمال حسين: ص 6

إسـماعيل الثـاني إلى تـولي عبـاس الكبـير العـرش مـن حيـث اتـساع نطـاق الخلافات الأسرية من ناحية، وانفـراط حبـل سـلطة الدولـة. فـراج الفـساد الإداري وترهل البناء الاجتماعي حتى أن الباب فتح لشيوع الخرافـات. ولم تعد الدولة قادرة على الوقـوف ثابتـة أمـام الاضـطراب الـداخلي والتجـاوز الخارجي.

ومن هنا فـإن حالتهـا الإيجابيـة في البنـاء الإداري والبنـاء الاجتماعـي استبان قويًا في عهد الـشاه إسـماعيل الأول والـشاه طهماسـب الأول وابنـه إسماعيل الثاني وفي عهد الشاه عباس الكبـير وهـما عهـدان طـويلان زمنيًـا، واستبان ضعيفًا فيما تلا عهد الشاه إسماعيل الثاني، وفيما بعد الشاه عباس الكبير يتراوح الإيجاب والسلب في عمر الدولـة الزمنـي الـذي يـصل إلى مـا يقرب من قرنين ونصف عاشت فيه بين أقوى الدول والأعداء المتربصين بها.

الدهاء في نظام الحكم
وحسن وفادة اللاجئين

على الرغم من القسوة التي مرَّت بها إيران لدى تأسيس الدولة الصفوية، فقد غلب عليها مبدأ حسن الوفادة في استقبال رعايا الدول الأجنبية. ما دام الأمر في صالح تثبيت عراها، وإقامة ملكها الذي يبغاه الشيوخ الأوائل للدعوة الصفوية.

لقد ساعد الخطر العثماني الذي كان يهدد الدول الأوروبية على التقارب بين هذه الدول وإيران. فظهور الدولة الصفوية في شرق الأراضي العثمانية، خفَّف الضغط العثماني على قادة أوروبا فاتجه إلى إيران. ولذلك فقد سعت الدول الأوروبية إلى إسماعيل تعرض عليه تثبيت عرى الصداقة والمودة وتحضه على إيجاد علاقات سياسية واقتصادية، وحاول إسماعيل أن يستغل هذه الفرصة كرد فعل من جانبه على السياسة التوسعية للدولة العثمانية، فشرع يستقبل سفراء أوروبا[1].وهذا من باب الفكر أو الدهاء السياسي.

وكان العثمانيون قد استطاعوا قطع طريق التجارة القديم الذي يربط أوروبا بالشرق، ولم يعد الأوروبيون قادرين على حمل بضائعهم إلى الموانئ الشرقية للبحر المتوسط، وكسد حال تجار أوروبا الذين كانوا يتاجرون مع آسيا، وأصبح لزامًا علي الأوروبين أن يتبينوا وسيلة أخرى للاتصال بآسيا عن طريق الملاحة فاستطاعوا مستفيدين بما حققوه من اختراعات متقدمة في علم الملاحة أن يكتشفوا طريقًا بحريًا إلى آسيا ربما يكون في أمان من خطر التهديد العثماني.

---

(1) يقول بوسبك سفير فرديناد في البلاط العثماني "الإيرانيون فقط هم الفاصل بينا وبين الهلاك".

بدأ هذا الأمر يساهم في إيجاد علاقات متينة بين الأوروبيـين وإيـران، ثم إنه زاد من اهتمام أوروبا بإيران بعد أن وصـلوا إلى الهنـد التـي كانـت تمثل أغنى بلاد الشرق عندئذ باعتبار أن إيران تمثل نقطة حراسـة ومراقبـة للطرق البحرية الموصلة إلى شبه القارة الهندية من ناحية وبعـد أن بـدأت البرتغـال تنظـر بعـين الطمـع إلى الخلـيج الـذي يلاصـق الهنـد مـن ناحيـة أخرى[1].

كان العرب قد سيطروا على منطقـة الخلـيج، فكانـت جزيـرة هرمـز الواقعة في مدخل الخليج ذات أهمية كبرى.

ففي أوائـل شـتاء عـام 928 هــ / 1522م وصـل الـشاه إسـماعيل إلى عاصمته تبريز حيث أصدر أوامره بإعداد أماكن إقامـة للاجئـين الأتـراك في كل من خراسان وفارس محسنًا وفادتهم بقدر ما هم بسطاء صغار[2]، كـما نال مسئولون كبار حسن الوفادة أيـضًا، ففـي حربـه ضـد قبائـل الأوزبـك كانت أخت بابر حفيد تيمـور ومؤسـس الأسرة التيموريـة في الهنـد ضـمن الأسرى، فما كان من إسـماعيل إلا أنـه عاملهـا بالحـسنى، وأرسـلها معـززة

(1) كان موقع الجزيرة يعطيها أهمية استراتيجية بالنسبة للتجارة الدولية في ذلك الحين فهي تقع في مدخل الخليج بـشكلها المثلـث. وكانـت تـسمى حتـى القـرن الـسابع الهجري (جرون) فظل هذا الاسم لاصقًا بهـا حتـى العـصر الـصفوي، وكانـت مـن حيث الخصب فقيرة حتى أن شاعر العصر ألصفوي (وحـشي البـافقي) زارهـا عـلى دابته فلم يجد فيها طعامًا له ولا مؤنة لدابته التـي كانـت تنظـر لأشـعة الـشمس وتظنها تبنا تأكله.. وقد اختلف الجغرافيون والرحالـة العـرب في ثروتهـا الطبيعيـة (عباس إقبال: مطالعات در باب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس ص 7 ونـصر الـلـه فلسفي: تاريخ روابط إيران وأوروبا در دورة صفويه.

(2) تشابه هذا التصرف مع تصرف الشيخ زايد رحمه الـلـه عندما أعد أماكن لاستضافة بنات البوسنة والهرسك وكان يساعد من يتزوج منهن بـ 35 ألف درهم.

مكرمة إلى أخيها، فتجمعت مقدمات الصداقة بين الدولتين[1]. وفي هذا دهاء يحكم نظام الحكم منذ أن بدأ.

ويورد الدكتور ثابتيان في "إسناد نامه هاي سياسي در دوره صفويه ص 102"، باختصار أن الشاه إسماعيل كتب في نهاية إحدى رسائله "أن هذه الأقوال والأفكار المذمومة وليدة لخيالات منشئ السلطان المدمنين، فهذه الرسالة ناشئة المخدرات التي يدمنها المنشون، وأن السلطان عليه أن يذوق في النهاية – المرارة والضرر والحرقة، كما أنه ذكر أنه يكتب هذه الرسالة من باب الصداقة. إذن فمن الأفضل أن يفكر في عاقبة هذا الأمر الخطير، ويدخل في طريق التراجع لأن النهاية غير محمودة وعندئذ لن ينفع الندم".

ومهما كانت مؤديات هذه الرسالة من إسماعيل إلى سليم الأول فإن في الصلح خير كما يقول القرآن الكريم: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها" والسلم له مقدمات وإرهاصات يتلوها مفاوضات ثم شروط يُبنى عليها الاستقرار.

ومعنى ذلك أن الدولة الصفوية منذ نشأتها كانت تواقة إلى علاقات طيبة مع جيرانها أيا كان مذهبها. وهذه حالة إيجابية تمثلت في حسن وفادتها للأجانب سواء بالاستقبال أم بتبادل رسائل عرض الصداقة والمودة، وفي هذا دهاء نظام الحكم.

وهذه الرسالة تمثل قسطًا من الدهاء السياسي الذي توجته الدولة الصفوية منذ نشأتها على عكس الدولة العثمانية التي كانت قاسية في رسائلها إلى الشاه إسماعيل،كما جاء في رسالة سليم الأول إلى عبيد الله بن

---

(1) تاريخ اجتماعي إيران، ص383.

شيباني خان ملك الأوزبك وشريك سليم في المذهب السني إذ قال له يحثه على محاربة إسماعيل[1]: فقد وقعت بلاد الشرق في قبضة صوفية قساة خاسرين، فضاقت شعوبها بهم ذرعًا، وبعد استخارة الملك المتعال وجدت نفسي منشرح الصدر لمحاربتهم بجيش جرار ينزل بجنودهم الشياطين وزعيم الملاعين الهزيمة، ورغّب عبيد الله في الثأر لأبيه بفتوى (كتب عليكم القصاص في القتل). وفي هذه الحرب اجتمع عبيد الله مع بابر شاه فقتلوا قائد جيش إسماعيل، وهاجموا خراسان وأعملوا فيها القتل والغارة[2] وكان جواب عبيد الله إلى سليم أن شاهد حال الصفويين في الأرض(يفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) ولو نظرنا إلى الرسالتين لوجدنا أن في الأولى دهاء سياسيا، وفي الثانية مواجهة صريحة.

أخذ مبدأ حسن الوفادة مداه في عصر الشاه طهماسب الأول، وربما ساعده في ذلك مكوناته الفكرية، ويسر طول عهده له ذلك.

مع أن السلطان سليمان القانوني كان شخصية قوية إلا أنه ابتلي في أخريات حياته باختلاف ولديه سليم وبايزيد[3]. وقد لعبت إيران هي الأخرى دورًا في هذا الخلاف فعندما اضطر الأب إلى عزل بايزيد عن ولاية كوتاهيه عام 966 هـ / 1560م أثار هذا حقد بايزيد الذي توجه على رأس جيش لمحاربة أخيه سليم، فغضب الأب وأرسل جيشًا لدفع ابنه بقيادة أخيه سليم، ولم يصفح السلطان عن خطأ بايزيد رغم اعتذاره. فهرب بايزيد مع أولاده الأربعة وعشرة آلاف من أتباعه، وتوجه إلى إيران عن

---

(1) تاريخ اجماعي ايران، مرتضى راوندى، ص 385 .

(2) تاريخ اجتماعي إيران، مرضى راوندي جزء 2، ص 385.

(3) روضة الصفا، امير خواند، جلد هشتم ص 98 مرجع سابق.

طريق أرمينيه، فاستقبله طهماسب وأحسن وفادته هو ومن معه، وأسكنه أحسن القصور ووعده ألا يسلمه إلى والده.فقاعدة السياسة اليوم تقوم على أن لا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة. اذن فالدولة الصفوية هى التى وضعت هذه القاعدة بما يحسب ايجابيا.

وقد كان بايزيد يتوقع أن يمده طهماسب بجيش لمحاربة أبيه، ولكن الشاه الصفوي لم ير في طلبه مصلحة لإيران، وهذا من باب الدهاء السياسي الذي يحسب للدولة الصفوية إيجابًا عندئذ، فقد كان يسعى لتأكيد اتفاقه السابق مع الدولة العثمانية، ففكر أن يتوسط لبايزيد لدى والده كي يسمح له بالبقاء في إيران، غير أنه علم أن بايزيد يدبر مؤامرة ضده، فأمر طهماسب بأسره هو وجمعاً من أعوانه عام 967 هـ / 1561م[1].

وبعد أن سمع السلطان سليمان نبأ اعتقال ابنه بايزيد، بعث يطالب بتسليمه في الحال، فحانت الفرصة لعقد معاهدة الصلح بين الطرفين، واستغرقت المفاوضات عامين، وانتهت بعقد معاهدة صلح يسلم بمقتضاها الشاه طهماسب بايزيد لأبيه، وتبقى قلعة قارض خربة بمثابة منطقة معزولة السلاح بين أرضروم التركية وولاية أرمينية الإيرانية[2]، غير أن تسليم بايزيد لأبيه الذي قتله هو وأولاده الأربعة لم يعجب بعض الإيرانيين فلاموا طهماسب على ذلك.[3]

ونحن لا نستطيع أن نسير هذا المسار الذي اختاره طهماسب في تسليم بايزيد وأتباعه؛ ذلك أن أباه لم يغفر له زلته وقتله هو وأولاده،

(1) اسكندر بيك منشي عالم آراي عباسي ص 103.

(2) مثلث ولاية ارمينيا بقسميها دافعا للاختلاف بين الدولتين لأهميتها.

(3) اسكندر بيك منشى عالم آراى عباسى ص 103 .

فالممارسة والمداهنة- وكلتاهما متجانستان- من فعل ألاعيب السياسة التي هي متشاحنة دائمًا، فبفارق زمني قدره ثمانمائة وخمسين سنة يزيد أو ينقص نتذكر أن عمرو بن العاص نجح في حادثة التحكيم، وانتصر بطريقة مغرضة، فكيف نحكم بالسلب على جانب دون آخر؟ فأتباع المصلحة قائم في الإسلام كما قال القفطي في كتابه. ويدل على ذلك سعي الدول غربية أو شرقية وراء مصلحتها أيامنا هذه. إن ما فعله طهماسب إيجاب وليس سلبًا تلقاه ممن سبقه وتبناه من لحقه في دهاء الحكم. ونحن لا ندافع عن الدولة الصفوية ممثلة في شخص طهماسب قدر ما نحتكم للقول القرآني "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض".

إن استقبال طهماسب لـ (همايون) بن بابركما تصوره لوحة تجمعهما على أحد جدران قصر(چهلستون)دليل آخر على الدهاء في نظام الحكم وحسن وفادة اللاجئين، تقول الروايات إنه لم يثبت حض همايون على الاعتقاد في المذهب الاثني عشرى تطبيقًا لقاعدة (لا إكراه في الدين). وقد عرض طهماسب عليه مدَّه بجيش لاستعادة عرشه، فحقق بذلك نتيجتين: الأولى عودة همايون إلى دياره ومد نفوذ الصفويين إلى الهند الأمر الذي ساهم في تدعيم الكيان الصفوي، والثانية أن هذا النفوذ جعل قبائل الأوزبك بين شقي الرحى. ولذلك لم نعد نرى منذ عودة همايون إلى دياره سوى فورات أوزبكية ضد الصفويين ولكنها لم تغن ولم تسمن من جوع، وهذا دهاء فى إبعاد الخطر الأوزبكى.

ونحن لا نستطيع أن ننفى عن طهماسب الحاسة الوطنية الصادقة، وقد قلنا :إن هذا الأمر يستبين من خلال تقصير يد الأجانب عن إيران، فلم نشهد في عهده الطويل تواجدا للأجانب كما شاهدنا في عهد أبيه القصير.

لم تشهد الحقبة التالية لحكم طهماسب هذا الدهاء في نظام الحكم ولا حسن الوفادة لاضطراب الأوضاع فيها سواء في داخل البلاد أو في خارجها من ناحية، وكثرة الحروب ضد العثمانيين والأوزبك وبقايا التتار من ناحية أخرى.

من أجل ذلك، قل قدوم اللاجئين أو الزوار بل انعدم؛ نتيجة عدم الاستقرار، غير أنه زاد مع استتاب الأمن واستقرار الأوضاع زراعة وصناعة وتجارة في عصر عباس الكبير. ومن هنا فإن العلاقات الحقيقية بين أوربا وإيران بدأت منذ عصر هذا الملك[1].

ففى الصناعة يستقبل الشاه عباس الأخوين شرلي ويكلفهما بإنشاء مصانع للتسليح. وهما من قدما إلى إيران في شكل رحالة، فأحسن الملك وفادتهما.

وفي التجارة يكلف الشاه عباس الأرامنة بعد حسن وفادتهم وتكريمهم بالسفارة لإيران في الخارج من ناحية، وتسويق البضائع من ناحية أخرى[2].

معنى ذلك أن عصر عباس مثّل أهم تطور في الدهاء السياسي؛ ودليل ذلك ما حققته الدولة الصفوية على يديه من إنجاز حضاري متفوقة عندئذ من ناحية ومما يمكن اعتباره نظرية في نظم الحكم يمكن أن تدرس من ناحية أخرى. ونراه يكره الألقاب، إذ قال يومًا لشخص نعته بألقاب كثيرة مدحًا له أن القابك لا تزدني ولا تنقصني، فأن تخاطبني بلقبي الحقيقي (الشاه) فاعلم

---

(1) مرتضى راوندي: تاريخ اجتماعي ايران، مرتضى راوندي، جزء 2، ص 412.

(2) لمعلومات أوفر في هذا الصدد؛ يراجع بديع جمعه في كتاب الشاه عباس الكبير مرجع سابق ونصر الله فلسفي في كتابه: تاريخ روابط ايران واوروبا در دوره صفويه.

أنني سأرضى عنك،وهذا الصنيع منه جاء منعًا لانتشار النفاق في المجتمع[1] وفى هذا فكر عال.

وفي الحقبة التي تلت عصر عباس وهي حقبة ضعف الدولة ونحوها نحو الزوال – رفعت خانم مهران أميرة الأكراد الذين يعيشون على الحدود بين الدولتين الصفوية والعثمانية راية العصيان، وحاولت الإغارة على الكيان الصفوي، فحاربها الجيش الصفوي، وقضى على الفتنة بأسر الأميرة، إلا أن الشاه صفي عفا عنها، وأعادها مكرمة إلى أهلها[2].

ومن الدهاء السياسي عند الشاه صفي أنه أطلق سراح ألفين من الأسرى الأتراك وأرسلهم إلى ديارهم بعد فتح النجف وكربلاء عام 1041 هـ / 1632م.

وليس غريبًا على الدولة الصفوية حتى في فترات الضعف أن تسترد قادة جيوشها مقابل فك أسر جنود الأعداء، مثلما حدث من استرداد مرتضى قليخان في الحرب التي دارت رحاها إبان حكم الشاه صفي خليفة عباس، فوضعت بذلك أساسًا في تبادل الأسرى أو قل ساهمت في تقنينه إلى أبعد حد[3]، بمعنى أنها تعد في حالة إيجابية بالنسبة للقانون الدولي الذي يحكم قواعد العلاقات الدبلوماسية بين الدول فيما نعرفه اليوم.

---

(1) راجع عن دور المرأة في العصر الصفوي رسالة الماجستير للدكتورة / هويدا عزت بآداب عين شمس. لم تنشر بعد.

(2) نصر الله فلسفي: وندگاني شاه عباس أول، نصر الله فلسفي، جزء 2 ص 82.

(3) يحدث الآن أن يتم تبادل أسرى مقابل عمل سياسي أو حتى استرداد جاسوس مع أن الفارق الزمني كبير. ومن ثم فالدولة الصفوية لها دخل كبير في تقنين القانون الدولي.

وفي باب إحسان الوفادة كما تحرص الدول في عالمنا اليوم تطبيقًا لعرف دبلوماسي فيما بينها نجد أن الشاه صفي يكرم وفادة سفير روسيا الذي قدم إليه مهنئًا بانتصاره على العثمانيين 1046 هـ / 1637م متقبلاً هدايا القيصر.

وعندما علم صفي باستسلام قواته في همدان، قبل الصلح مع العثمانيين،وسلم بغداد لهم، واقتنع برد أيراوان في عام 1028 هـ / 1639م، وكان هذا منه عملا بمبدأ مقابلة الشيء بالشيء، وهو عرف متبع الآن في العلاقات السياسية بين الدول، إذن فبالفارق الزمني كان للدولة الصفوية الجهود الإيجابية في هذا الصدد مادامت هذه الجهود عن قناعة.

وفي بداية عصر الشاه عباس الثاني، حدث أن اعتزم إمام قليخان زعيم الأوزبك- عُزل بسبب فقد بصره – زيارة مكة المكرمة، فانتقل من التركستان إلى خراسان حيث بالغ الشاه في إكرامه، وهذا من باب الدهاء السياسي المقرون بحسن الوفادة ففي هذا الكرم يستبين المثل الشعبي (ما من محبة إلا بعد عداوة) على الأقل.

وعندما وجد شاهجهان التيموري خليفة جهانگير - في أحوال إيران المضطربة فرصة مناسبة لاستعادة منطقة قندهار – الحد الفاصل بين إيران والهند - حيث كان الشاه عباس الكبير قد ضمها إلى حوزته، وأرسل ابنه لتولي أمرها مما جعل الشاه عباس الثاني يجهز جيشا لدفع جيوش شاهجهان.[1]

(1) الدولة الصفوية تاريخها السياسي والاجتماعي وعلاقاتها بالعثمانيين، آحمد الخولي، ص 217- 218.

أدى هذا الموقف الجديد إلى أن يتفق عدوا أمس صفويون واوزبك من أجل صد شاهجهان، فذهب وندرخان زعيم الأوزبك إلى إيران طالبًا المساندة من عباس الثاني فأحسن وفادته، وحقق طلبه وترتب على ذلك أن عاد شاهجهان أدراجه إلى الهند بمجرد سماع الخبر. وكان أن عاد وندرخان إلى

رئاسة الأوزبك، ثم أرسل شاهجهان سفيرًا إلى أصفهان عارضًا صداقته على الصفويين وهذا الموقف يضع قاعدة هي أن الشعوب مهما كان مذهبها يمكنها أن تتآلف دون صراع عملا بالأسس التي وضعها القرآن في هذا الصدد.

مثلت هذه الحقبة اللاحقة بالشاه عباس الكبير والتي شملت خمسًا من الملوك ضعفًا استشرى في إيران بما مثل حالة سلبية للدولة الصفوية انتهت بها إلى السقوط على يد قائدهم العسكري نادر شاه أفشار[1]، وإعلان نفسه ملكًا على إيران في 24 شوال عام 1148 هـ / 1735م، وأطلق على نفسه نادر شاه، فغابت شمس الدولة الصفوية بسلبيتها في هذه الحقبة.

(1) انظر كتابنا" نادر شاه أفشار" مؤسس الدولة الأفشارية وأول مفعل للتقريب بين المذاهب الإسلامية. نشر المركز القومي للترجمة وهو ترجمة لكتابات مجموعة من المستشرقي، القاهره، 2010.

الرؤى والأحلام والخرافات

ليس عيبًا أن تتجذر الـرؤى والأحـلام في نفـوس شـيوخ الـصفوية بـل إنهم اعتبروا هذا المنحى في جـزء مـن سياسـتهم، ذلـك أن التـاريخ القـديم والوسيط وربما الحديث على نفس الوتيرة.

كان الخلفاء والملوك والحكام يأخذون بالتنجيم حال الإقدام على أمـر مهم، يتفاءلون ويتشاءمون. وربما في قـول النبـي عليـه الـسلام (بـشروا ولا تنفروا) دليلا على ذلك.

ولأن الدعوات المذهبية تبنى مراميها على غيبيات جاءت قيمة الرؤى والأحلام في الدولة الصفوية. ونحـن لا نـرى في هـذا سـلبًا، ذلـك أن الـرؤى والأحلام يبني عليها مواقف أو قل أحاسيس لـدى العامـة. فـما بالنـا ممـن هم أكثر من ذلك مسئولين وأفرادا. لا شك أنهم بين الإيجاب والسلب.

كان التصوف قـد بـدأ يـشق طريقـه إلى المجتمـع الإيـراني في الوقـت الـذي ظهـر فيـه الـشيخ صـفي، وأخـذت فـرق الـدراويش تنتـشر ويقـوى ساعدها كنتاج طبيعي لحالة الفساد الذي انتـشر في الـديار الإيرانيـة أثنـاء حكم المغول ومن بعدهم الصفويين، وكرد فعل لما تركـه هـذا الحكـم مـن آثار نفسية مدمرة في نفوس الإيرانيين.

والواقع أن التشيع ظهر في البيئات الفارسية بشكل واضـح بعـد ثـورة المختار الثقفي، وانتشر دعاته في إيـران وكـانوا مـن الكـثرة والقـوة بحيـث خشيهم دعاة العباسيين عندما اصطدموا بهم في خراسـان[1]. وخاصـة بعـد ظهـور الدولـة الـسربدارية شـيعية المـذهب. والملاحـظ في هـذه العـصور المبكرة أن الدعوة السيادية اتخذت شكل الموعظة الدينية.

---

(1) دولة الإسـماعيلية في إيـران، محمـد الـسعيد جـمال الـدين، ص 14مـتن وحاشـية، القاهرة، 1975.

زعم الشيخ على سياهبوش حفيد الشيخ صفي أنه رأى الإمام محمد النقي في المنام يأمره بدعوة الإيرانيين إلى اعتناق المذهب الشيعي[1]، ومن هنا بدأت الرؤى والأحلام تأخذ طريقها إلى الدعوة الصفوية، أضف إلى ذلك الأرضية المهيأة لمثل هذه المنامات.

واتبعه حفيده السلطان حيدر، وأكد صلة نسب أجداده بالإمام موسى الكاظم، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا أصبحت الأسرة الصفوية تعتبر نفسها من آل البيت.

واعتقادًا منها بهذه الصلة النبوية كان طبيعيًا أن تزداد الرؤى والأحلام تأكيدًا لسيادتهم وتحقيقًا لمراميهم وسط الأتباع أو قل المريدين. وفي ذلك يقول "صاحب سلسلة النسب صفوية" الكتاب العمدة الذي أمر الشاه طهماسب أبو الفتح الحسيني تنقيحه وإعادة ترتيبه في شأن الدعوة الصفوية أن شمس الدين البرنيقي الأردبيلي يقول : "أحصيت عدد الراغبين والمشتاقين في طريق مراغه تبريز فوجدت أن ثلاثة عشر ألفا قد جاءوا في ثلاثة أشهر إلى حضرة الشيخ، وأعلنوا التوبة. وقس على ذلك في بقية الأطراف"[2].

والشيء الذي كان يجمع طوائف القزلباش المختلفة منذ زمان الشاه إسماعيل الأول ويوحد بينهم هو حب الشاه والتضحية في سبيل تحقيق مقاصد المرشد (الملك) المقدسة التي تنحصر في تدعيم الكيان الصفوي وإقرار المذهب الشيعي الاثنى عشر. يقول تاجر إيطالي كان في إيران في بداية أمر الشاه إسماعيل مشيرًا إلى إرادة قبائل القزلباش وإيمانهم

---

(1) سلسلة النسب صفويه، ميزا زاهدي، ص 46، برلين 1993.

(2) المرجع السابق ص 38.

وتضحيتهم في سبيل رئيسهم: "يقدس المريدون وبخاصة الجنود منهم هذا" الصوفي" من ألقاب (الملك) كما يقدسون اللـه. والبعض منهم يخوض الحروب دون سلاح معتقدا أن المرشد الكامل يحرسهم في ميدان الحرب".

أردنا بهذه الأرضية الفكرية وإن كانت في السالب أن نهيئ الجو للمنامات التي سادت عصر طهماسب من خلال تذكرته التي أعدها في أمر حكمه الطويل، وقد يسأل سائل ولماذا عصر إسماعيل أبيه؟ نقول إنه انشغل بالتأسيس والمعارك والعمر القصير فلم يكن له أن يحلم وأرض الواقع تشغله!!!

سادت عصره خرافات بعينها – كما رأينا – بين المريدين أتباعه عامة.

وينبغي القول أن طهماسب كان شديد الاعتقاد في الأحلام، وقد واتاه هذا الاعتقاد وهو في سن العشرين عندما تاب عن جميع المحرمات[1]؛ إذ يقول إنه رأى في المنام أن الملائكة تضغط على حلقومه وتخاطبه[2]: "هل يليق بملك لقبه العادل، وينتسب لأسرة على أن يجعل بيت المال خرابًا بينما يملأ هو خزانته، وقد دفعه ذلك إلى أن يقول[3]:"اعتقادي أنا الضعيف طهماسب الموسوي الحسيني هو أن من يرى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في المنام يصير له ما يأمر به".

وهو يرى[4] في عام 934 هـ / 1528م عليا بن أبي طالب في المنام يمنِّيه بالانتصار على الأوزبك، ويأمره بأن يذهب لمحاربتهم مرة أخرى بعد سنة أو سنتين في هراة، ويذكر أن الإمام على الرضا قد جاءه دفعتين

(1) أحسن التواريخ، م وقائع عام 939 هـ حسن روملو- ص 46.

(2) تذكرة طهماسب، ص289 .

(3) زندگاني شاه عباس أول. جلد أول ص 3.

(4) تاريخ ادبيات ايران، جلد چهارم، ترجمة رشيد ياسمي، ص 85.

متواليتين تصدق الثانية الأولى، وفيها يحضه على تـرك المحرمـات. ويعتقـد طهماسب في الأحـلام فيقـول: إنـه رأى ذات ليلـة في أردبيـل جـده الـشيخ صفي الدين الأردبيلي وفي مكان آخر من تذكرته يقول : إن الـشيخ شـهاب الدين قد جاءه في ليلة يقوي من عزيمته ويشد من أزره.

لم يكـن طهماسـب وليًـا مـن أوليـاء اللـــه، ذلـك أن أحـداث عـصره الطويل غاصة بالمحامد والمثالب، ومن هنا كانت أحلامـه في تقـديرنا نوعًـا من شد أزر أعوانه، وتطبيعًـا لهـم عـلى المـذهب الـشيعي الاثنـي عـشري، وتأكيدًا على أنه الشيخ المرشد، فمع وجود صفات ليست حسنة في تركيبته الشخصية والفكرية يقول الساندري سفير دولة فينسيا في الـبلاط الـصفوي إن احترام الشعب بالنسبة له وصل إلى حد لا يمكن تصديقه"[1].

ولم نعهـد في عـصر إسـماعيل الثـاني أو في الفـترة التـي تلتـه وتـولى فيهـا السلطان محمد خدابنده عرش الدولة الصفوية شـيئًا عـن رؤاهـم وأحلامهـم، الـلـهم إلا التفاعل بالأخبار كما حدث من محمد خدابنده لدى وصول الأخبار بتوليه الملك فأطلق على مـن أبلغـه الخـبر وهـو اسـكندر بيـك (أمـير الأخبـار الطيبة).

كذلك لم نجد في عصر الشاه عباس الكبير ما يوحي أنه قد حلـم بكـذا أو رأى في المنام كذا مع أنه حكم لفترة زمنية طويلة، ويبدو أن هـذه المنامـات لا تروى فى فترات القوة كما كان الأمر بالنـسبة للـشاه إسـماعيل أو كـما هـي في عـصر عبـاس الكبـير ربمـا لـبطش هـذين الملكـين أو تعـدد الأحـداث في أثنـاء حكمهما.

---

(1) مسافرت ونيسي هادر ايران (انجمن هاى كلويت 1873) ص 15 نقـلاً عـن تـاريخ ادبيات ايران. جلد چهارم، ترجمة : رشيد ياسمي، ص 84 متن وحاشية 5.

وقـد راجـت الخرافـات والعقائـد الفاسـدة في الفـترة اللاحقـة بعـصر عباس الكبير وشهدت من الملوك خمسًا. وقد ساعد عـلى ذلـك صـغر عمـر هـؤلاء الملـوك، وطمـع الأجانـب في إيـران، وارتكـان الملـوك إلى الملـذات والشهوات واحتساء الخمر مع الجواري والقيان بما أفـسح المجـال لانتـشار الخرافات.

ومن ثم لا نستطيع أن نعتبر الدولة الصفوية التي أسسها ملـك قـوي كإسـماعيل الأول واعـتلى عرشـها في حقبتهـا الأخـيرة ملـك شـجاع كعبـاس الكبير. خاضعة للرؤى والأحلام بما يمثل قوة ايجابية وإن كان هذا قـد تـرك أثرا فى بناء العلم الإسلامي بشكل يمكن أن يتصف بالسلب.

النهضة الحضارية

في هذا العهد الصفوي وجدنا اهتمامًا بالغًا وإيجابيًا ولا يستهان به في سبيل التقدم الحضاري بما يتناسب مع زمانه، والأهم البدايات التي تقود إلى نتائج. ونحن نقول، فمنذ خمسين عامًا مضت كانت الصناعات بمفهومها الحالي والمتوفر في كل الأنحاء ليست موجودة، وكان الناس في كل البلاد يتطلعون إلى نهضة صناعية كما هو الآن.

ونقول ذلك أيضاً من باب الثناء على الدولة الصفوية، فقد ثبت أن عددًا من بين مريدي هذه الفرقة كانوا يرتبطون بالحرفيين. معنى ذلك أن هؤلاء هم الركيزة الفنية لأي صناعة تقوم ولو أخذت في مسارها عقودا وعقودا. لكن المهم أن العقيدة الصفوية أخذت منذ بداياتها بمكانة الحرفيين وزكتهم[1].

يحصي سام ميزرا ابن الشاه إسماعيل في كتابه تحفه سامى أنواع الحرف وعدد المشتغلين بها على النحو التالي:[2]

(أ) الحرف العامة والشعبية:

الحدادة (435)، بيع الحرير (361 – 379 – 392)، زراعة الحدائق (البساتين) (702)، الفلاحة (288)، صناعة الزجاج (73 – 701)، البقالة (108)، المعمار (269 – 420)، البيع (بيع - شراء – دلالة) (427)، الحفر (686)، صناعة السروج (269)، خياطة الجلود (380)، صناعة التيجان (389 – 565 – 680)، التجـــــارة (629)، (86 ،94 ،290 ،417 ،481 ،551 ،593 ،620 ،696)، التذهيب (81)، التصوير (134)، التعليم (أطفال) (476

(1) مرتضى راوندي تاريخ اجتماعي ايران، مرتضى راوندي، ص 377.

(2) أعد هذه القائمة الدكتور مصطفى شرف صاحب رسالة القزلباش ودورهم فى العصر الصفوى

– 480)، صناعة الأزرار (548)، تركيب الأزرار (382)، تربيـة الغـنم (709)، صناعة السهام (84، 591)، الغزل والنسيج (279)، صناعة الـدبوس (707)، التدليك (429) صناعة الحلوى (283)، الاسـتحمام (الحـمام البلـدى (673)، صـناعة الخـواتم (659)، الخدمـة (97)، الخراطـة (125)، تجـارة القطـاعى (400- 434 – 538 – 610) قــراءة القــرآن (490 – 510 – 644)، الخــط (86)،، الخياطة (87، 334، 538)، الأستاذية العلمية الدينية (362)، الدلالـه (675)، الترميـل (65 – 447 – 484 – 543 – 580 – 697)، الزراعـة (219) التذهيب (246)، التطريز بالـذهب (605)، الـصياغة (193 – 330 – 687) صـناعة الجعـب (707)، صـناعة الـسروج (556)، الحلاقـة (588 – 683)، السكاية (364)، الوقـادة (584)، بيـع المرطبـات (583)، الـشاعرية (501)، الرعويـــة (664)، تجميـــع الكتـــب (126 – 368 – 454 – 576 – 581 – 634)، الـــصرافة (387 – 523)، الـــصيد (707)، الـــصرافة (197)، الطـــب والطبابـــة (85 – 146 – 147 – 148 – 153 – 155- 157 – 159 -498)، الهندسة (134)، بيع العسل (364)، العصر (500)، العطـارة (298 – 522)، العلافة (590)، نسج الحرير (376 – 548)، الولاية (472)، تجـار القطـاعى (70)، الجزارة (71 – 606 – 692)، رواية الحكايـات (678)، العمالـة (272 – 689)، التجارة (608)، الوراقة (586 – 700) الشواء (607)، الكتابة (408 – 473 486 – 505 – 646 – 684) كتابة بيع الكتب (630)، صناعة الكحل (446 – 527) بيع الحرير (416)، التجـارة (363)، صـناعة الاحذيـة (432)، الـشرطة (47 – 193)، طـبخ لحمـة الـرأس (677)، الخبـازة (290)، صـناعة الـسهام (281)، صـناعة النبـال (707)، صـناعة الأحذيـة (187)، الكميـاء (662)، الفاخورة (360)، استخراج حجـر الـلازورد (126 – 406)، التجليـد (532)، المذبح (270)، بيـع المـسك (339 – 613)، الطـرب والغنـاء (390)،

المعاركـــة (255 – 299) التـــدريس (388 – 396 – 503 – 513 – 625)، المشيخة (120 – 450)، التمـشيط (547)، النحـت (عـلى العظـام) (246 – 253)، النحت (81 – 406 – 450 – 659)، تجـارة الحريـر الخـاص بالنـساء (374)، الخضار (386).

(ب) الحرفيون والصناع :

ورد في تحفة سامي العديد من الأشخاص تحت مسمى " شاعر" وهم من أصحاب الحرف والصناعات[1] :

بـائع الحريـر (588)، الحفـار (685 – 686 – 706)، الخـزن (279)، الإسكافي (676)، التاجر / التجار (209)، صانع جراب السلاح (393)،، صانع المكانس (564)، الجراح (117)، بائع الفواكه (المقطوفات) (699)، القارئ / القراء (118 – 336 – 337 – 494 – 636)، الحلاج (301 – 475)، الخادمة (141 – 630)، الخـــدام (696)، الخبـــاز (154)، الخطـــاط (337 – 636)، الخطيـب (618 – 626) مفـسر الـرؤى (130)، الخـواص (674)، الخطـاط (264 – 338- 496)، الخيـــاط (315 – 689)، الدلالـــة (665)، العمـــدة (487)، الرمَّال (662)، القروى (67)، صانع الدهن (زيت – سـمنة) (594)، المطـرز بالـذهب (82)، الـصانع (116 – 119 – 288 – 330)، معـد الأرض للزراعة (708)، العمل (47 – 289)، ناثر الـسكر (الحلـوانى) (283)، صـانع السيوف (597 – 599)، صانع الزجاج (312)، صانع الكتب (636)، الطبـاخ (319)، الطبيب والأطباء (49 – 146 – 271 – 348)، العالم (144)، العـصار (694) الجزار (665)، الراوى (257 – 260 – 261 – 562 – 674).

---

(1) كان الشعراء فى العصر الصفوى أصحاب حرف ومهن .

كما يشار إلى أن الحرفيين من كثرتهم كانوا شركاء للفلاحين في تمردهم أثناء عصر طهماسب.يذكر حسن روملو في كتابه أحسن التواريخ -وهو الكتاب العمدة في دراسة عصر طهماسب عددا من ممثلي الحرفيين والمهنيين كانوا ضمن زعماء النهضة مثل خياط الكتان، وصانع الأحذية، وبائع الخضرة وخياط السراويل وعدد من تجار الجمال، واعتبرهم من رواد النهضة[1].

هذه النهضة الحضارية تفرعت وشملت نواحي مختلفة حتى، الزراعة التي هي أول ما وهب الله لعباده شهدت تحولا في العصر الصفوي. فمن الثابت أن المناطق الخصبة في إيران كانت تعمر بالإنتاج الزراعي والرعوي[2].

ولم تكن التجارة[3] التي تشمل صنائع مختلفة مقصورة على الدول الغربية بدليل أن إيران قلصت تجارتها مع الدولة العثمانية لدى توتر العلاقات بين الجارتين باعتداء العسكر الترك على الأنحاء المجاورة لبحر الخزر في 988 هـ / 1580م[4].

معنى ذلك اتساع نطاق الصناعات بدليل تصديرها تجاريًا بما تعمر به من خضروات، وفاكهة، ومصنوعات حريرية، وفرش وبسط تمتاز بها إيران، والمهارة فيها مرجعها إلى الخبرات بتراكم السنوات. وربما هذا

(1) المرجع السابق، ص 389.
(2) معنى ذلك أن النهضة الصناعية المتواضعة لم تكن حديثة بدليل الإحصائيات المجدولة، وما أن جاء عصر عباس إلا وكانت المدينة قد اضطربت من كثرة المواقع الصناعية وهي الظاهرة التي عبر عنها الأدب الفارسي بـ (شهر آشوب).
(3) انظر تذكرة طهماسب الترجمة العربية رسالة ماجستير آداب عين شمس غير منشورة إعداد مصطفى شرف، سنة 1991.
(4) تاريخى اجتماعى ايران، مرتضى راوندي، ص 388.

التشجيع على النهضة الحضارية بمفهومها الواسع ظاهرة إيجابية من ملوك الدولة الصفوية الأول والثاني، فصار هذا تقليدًا لمن بعده. والنهضة الحضارية إن مادة أو معنى لم تعرف توقفًا في عصر الشاه طهماسب ومن خلفه إسماعيل الثاني أو محمد خدابنده لماذا هذان الاثنان؟ لأن عباس الكبير وهو ومن خلفه مرحلة بذاتها، ونعود إلى الجزء الأول من الكلام؛ كان طهماسب رقيق القلب بمعنى أننا لو نظرنا إلى تذكرته وجدنا فيها ردا على ذلك: إن الملك ليس مني وليس منك وليس من عند السلطان، ولكنه من عند الله حيث إن الملك له يهبه لمن يشاء ويريد (تؤتي الملك من تشاء).

وقال ردا على أحد منافسيه: إن الخيول وأموال الدنيا لن تأتي لك بفائدة فقد بعث الدين بها والحديث النبوي يقول: "إن الدنيا جيفة طلابها كلاب" والعقلاء في هذا الباب يقولون:

- اترك يا قلب هذه النقود يومين.

الفخر بالنقود لا يأتي بعمل يوم أو اثنين.

- فادخر من ذلك اليوم ليوم الحشر.

حتى يكون مستقرًا لك في دار القرار[1].

هو يركز هنا على قيمة العمل، لقد سبق الصينين في مثلهم "لا تعطني سمكة بل علمني الصيد" وكأن طهماسب يطبق الحديث النبوي "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"، بل هو ضد نظرية الكسب السريع الشائعة الآن.

(1) تذكرة طهماسب: الترجمة العربية مصطفي شرف ص 110، 111.

من هنا فالإحصائية الواردة عن الصناعات من خلال كتاب تحفة سامي تأليف سام ميرزا[1] تعتبر ركنًا قويًا في إيجاد الأرض الحضارية في الدولة الصفوية. وكان على طهماسب تنميتها والوصول بها إلى مستوى أعلى، وبذلك تكون الدولة الصفوية قد وضعت أساسًا إيجابيًا في تقدم الشعوب، وهذا أمر يحسب لها.

لم يُعرف شيئ عن النهضة الحضارية فيما تلا عصر طهماسب لكونها فترة مضطربة غصت بالمنازعات. لا نريد لها تكرارًا لأن مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة، فما دامت النهضة الحضارية قد بدأت في خطواتها الأولى فإن أميالا كثيرة قد قطعت في هذا السبيل.

تبدأ الحركة الحقيقية في إعلاء النهضة الحضارية بعصر عباس الكبير حتى أن مدينة كتبريز تصبح لؤلؤة في تاريخ المدن، يتمنى ملوك أوروبا أن تكون لديهم مدينة مثلها، فهي بوابة التجارة العالمية عندئذ إلى آسيا، فيها تعقد الصفقات بين التجار، وتعبر التجارة منها وإليها، يأتيها التجار من أوروبا، وما ذلك إلا لازدهار الحركة الصناعية في إيران ازدهارًا يلفت النظر في التعامل معه تجاريًا، ومن ثم فهي محمدة من محامد الدولة الصفوية أثبتت به إيجابيتها.

وإذا بدأنا الحديث عن مرحلة عباس، يلزم أن ننوه إلى أنها أعطت النهضة الحضارية الدفعة الفعالة في سبيل التقدم والتحضر الجديرين بدولة عمرت أكثر من قرنين وعرف بها العالم شرقًا وغربًا.

---

(1) سام ميرزا كان سجينًا لأبيه إسماعيل لدواعي أسرية وليس الموضع موضع مناقشاتها ولكننا نقول: إن سام كان معارضا ومعاكسا لأبيه بأن لا يلتفت إلى ما يرشد إليه.

شـهدت الدولـة الإعفـاء مـن الـضرائب، والاتـساع في نطـاق التجـارة، والتوقف عـن الحـروب العثمانيـة والأوزبكيـة ما مثـل ارتفاعًـا في معـدل الإنتـاج وبخاصـة الزراعـي.يكفـي أن الرحالـة شـاردن الفرنـسي يقـول "إن فلاحي أصفهان كانوا أكثر رفاهية من فلاحي فرنسا، وإن لم يكن ذلك عـلى مستوى إيران كلها"[1].

وما ذهب إليـه شـاردن صـحيح، فـنحن نجـد أن الرحالـة الأوروبيـين الذين زاروا إيران في القرن الحادي عشر الهجـري / الـسابع عـشر المـيلادي يثنون جميعًا على نظام الري بشق الـترع وتبطـين القنـوات مـع المحافظـة على نظم الـري المـستخدمة في القـرون الوسـطى وهـي القنـوات الجبليـة، وتلك المتشعبة من الأنهـار والآبـار بأنواعهـا وبخاصـة القنـوات الممتـدة في باطن الأرض. يعلق شاردن عـلى ذلـك بقولـه: إن الإيـرانيين يتميـزون عـن غيرهم من أهل الدنيا في النوع الأخير من وسائل الري[2].فكان بعضها يمتـد لمسافة الأربعين كيلو مترًا وعلى عمـق 12 مـترا، وربمـا كـان هنـاك مـا هـو أكثر[3].

كانت مياه السواقي مجانية فإن المياه الآتية مـن الـترع المنـشقة مـن الأنهار مسعرة، ويذكر شـاردن أن مـسئول الميـاه في منطقـة أصـفهان كـان يحّصل سـنويًا أربعـة آلاف تومـان، كـما أشـار الرحالـة نفـسه إلى انتعـاش الاقتصاد الإيراني وراجت الحاصلات الزراعية عـلى المـستويين الاسـتهلاكي أو التـصديري. فـالقمح والـشعير عندئـذ أهـم الحاصـلات الزراعيـة، والخبـز المصنوع من الشعير أكثر انتشارًا، والأرز من الحاصـلات المرغوبـة، والقطـن

---

(1) تاريخ إيران لمجموعة من المستشرقين الروس، ص 32 هـ.

(2) المرجع السابق ص 532، 533.

(3) المرجع السابق، ص 533.

تنتشر زراعته في أماكن دون أخرى، أما الأعشاب الصابغة مثل الروناس والحناء والزعفران فهي رائجة ويبدو أن الاهتمام بزراعتها راجع إلى احتياجها في الصناعة- وما أكثر من سجاد إيران وفرشها -. أما الخشخاش فزراعته قديمة في إيران قبل العصر الصفوي. والدخان أيضًا ينتشر في خوزستان وهمدان وكرمان وخراسان.[1]

وعن الفاكهة فهي متنوعة منها: التفاح والرمان والخوخ والمشمش والكمثرى والبرقوق والتين والعنب والتمر على سواحل بحر الخزر. والورود والأزهار معروفة في إيران أكثر منها في أوروبا كما يقول شاردن.

وقد أدى هذا الاتساع في الثروة الزراعية والحيوانية إلى رخص في الأسعار إلى حد أن ثمانية عشر خروفًا من خوزستان تباع بما قيمته (عباسى واحد) وهو مبلغ زهيد جدًا.

وقد عرفت إيران في زمان الشاه عباس تربية دودة القز بطريقة موسعة، بما ترتب عليه إنتاج كميات كبيرة من خام الحرير، وانعكس بدوره على الصناعة والتجارة. وأفضل أنواع الحرير الخام هو النوع اللاهيجاني الذي كان يأتي من شيروان وگيلان[2].

ولدى تقدم نظام البيع والشراء بالنقد الذي صدر بأمر عباس وأطلق عليه اسم "عباسي" شرع بعض الفلاحين يقطعون الأشجار وبيعها كأشجار المازو في خورستان، وأشجار الخشب المعطر في كرمان[3].

(1) المرجع السابق نفس الصفحة.

(2) المرجع السابق، ص 535.

(3) المرجع السابق، ص 535.

نظن أن القارئ يتفق معنا في أن الدولة الصفوية كانت إيجابية فيما يتصل بالنشاط الزراعي - سنة الخلق الأولى- بدليل رفع أو تخفيض أو إلغاء الضرائب على فلاحي إيران حسب موقعهم.

أما محمدة الدولة الصفوية في باب الصناعة فتبدو في أن رؤساء كل مهنة كانوا يكونون اتحادًا يجتمعون من خلاله أثناء الشهور الأولى من كل عام، ثم يواصل رئيس المدينة اجتماعه برؤساء المهن حسب مطالبهم، ولا شك أن هذا النظام دليل على الاهتمام بأمور العمال عمود الصناعة الفقري[1].

يذكر صاحب تذكرة الملوك أن البلاط الملكي كانت له مصانعه الخاصة التي يصدر أمر تعيين عمالها ورؤسائهم عن طريق الوزير الأول، كما أن ناظر الخاصة الملكية كان يشارك رؤساء هذه المصانع في تقويم السلع.

وكانت حرفة النسيج تترأس الحرف جميعًا، وقد ارتفعت إلى حد كبير في كل من أصفهان وكاشان ويزدوكرمان وشيراز ومشهد وتبريز.[2] مما ساهم في إيجاد منسوجات حريرية مذهبة ومقصبة بالإضافة إلى المخمل. وأصبحت هذه الحرفة تشكل في منتسبيها أكثرية العمال الإيرانيين[3].

وعلى حد قول شاردن؛ فإن فائض إنتاج الحرير كان يصدر إلى الخارج. ودليل ذلك استحداث طريق ما زال يعرف بطريق الحرير. أفبعد ذلك توجد نهضة حضارية بمفهومها الواسع؟! هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ما زال الحرير مقصد الخاصة من الناس.

---

(1) المرجع السابق 526.

(2) غطت هذه الصنعة أنحاء إيران كما رأينا.

(3)الدولة الصفوية: أحمد الخولي ص 203.

وبالإضافة إلى الحرير، كان هناك إنتاج آخر من المنسوجات يُصنع من وبر الجمال وأفضله في يزد وگيلان وقزوين، وثالثا من صوف الأغنام وأجوده في مازندران. وكان يصنع غالبًا للعامة، أما الحصير الإيراني فكان ذا شهرة عالمية، ويصنع فى سجستان من السمار، وأما صناعة السجاد الإيراني (العجمي) فقد وصلت إلى أعلى درجاتها وتقف الناس في الدنيا أمامه إعجابًا.

وتنبغي الإشارة إلى أن إيران عرفت في زمان الشاه عباس تقدمًا ملموسًا في صناعة الأواني الصينية والفخارية والقيشاني وبخاصة في كرمان ومشهد ويزد وأصفهان وشيراز[1].

أما صناعة الأسلحة، قد شهدت هي الأخرى تطورًا ملحوظًا في عصر عباس، ولعل تكليفه لشيرلي بإقامة مصنع للأسلحة في أصفهان يتوج هذا الاتجاه، وكان من أجود أنواع الفولاذ الذى ينتج في سواحل بحيرة رضائية بينما أجود أنواع السيوف فتصنع في قم وقزوين[2].

وتجددت فنون الصباغة، فتعددت الألوان، وما يدل على ذلك شهرة الفرش الإيرانية وجمال ألوانها مهما تقادم عليها الزمن. وعرفت إيران في هذه الفترة التنوع في صناعة الزجاج فتم استخدامه في إيران كلها. وكان أفضل أنواعه الذي يصنع في شيراز،وتقدمت أيضًا صناعة الورق والصابون، وشهدت الصناعات الذهبية والفضية والبرونزية تفوقًا كبيرًا[3].

---

(1) تاريخ ايران لمجموعة من المستشرقين الروس، ص 540 .

(2) المرجع السابق، ص 541.

(3) تاريخ إيران لمجموعة من المستشرفين الروس: ص 541.

مفاد ذلك أنه قد صار للتجار الايرانيين معاملات تجارية مع دول العالم المختلفة. فهم يتعاملون مع الصين مثلاً. بل إنهم يسعون في انتعاش الاقتصاد الإيراني.

لكن الفائدة التي تعود من التجارة الخارجية – كما هو الحال الآن مع الاختلاف- تذهب إلى التجار الأجانب من أرامنة وهولنديين وإنجليز وفرنسيين؛ لأنهم هم الذين يتمتعون بخصائص كثيرة منها اللغة. أما التجارة الداخلية فكانت في يد التجار الإيرانيين.

وقد أثرى التجار الأرامنه ثراء فاحشًا فهم مهرة من ناحية، ويحتكرون تجارة الحرير من ناحية أخرى. وكان عباس يكلف بعضهم بمهمات سياسية في الدول المسيحية، بل ويفيد منهم في تسويق بعض السجاجيد الحريرية النادرة في مقابل دفع الضرائب[1].

وبالإضافة إلى الأرامنه؛ كان الإنجليز والإيرانيون يتنافسون على تصدير الحرير الخام. وقد استطاع الهولنديون الحصول على امتيازات معينة من الشاه عباس في ميدان تصدير السلع الإيرانية، ولحق بهم الإنجليز في تصدير خام الحرير الإيراني. ويكفي دليلا على ذلك أن الهولنديين ربحوا من تصدير الحرير إلى أوروبا ما بين 11 إلى 13 ألف تومان[2].

وبالإضافة إلى خام الحرير، كانت هناك سلع أخرى. تصدر مثل: المنسوجات الحريرية (التياج) ووبر الجمال والصوف والأواني الخزفية والمصنوعات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة، وبخاصة الفيروز.

---

(1) المرجع السابق نفس الصفحة.

(2) المرجع السابق، ص 542.

وهناك علاقات تجارية كانت قائمة بين التجار الإيرانيين والروس. وربما ساعد التتاخم في الحدود بين البلدين على سهولة التنقل. وكان التجار الروس ينتشرون في أصفهان وقزوين ومدن الشمال، بل إن بعضهم أقام بصفة دائمة في (شماخي) حيث لهم دار ضيافة وتكية. وهم يصدرون السلع الإيرانية إلى بولندا وألمانيا وإنجلترا عن طريق روسيا. وقد عرفت السلع الإيرانية طريقها إلى تركيا عن طريق بغداد ومن بينها الدخان والمنسوجات الصوفية الخشنة والحصير والمنتجات الخشبية.

وكان التبادل التجاري بين إيران والهند كبيرًا، ويبدو أن التجارة الهندية كان من الممكن أن تكون منافسة للتجارة الإيرانية، إلى حد أننا وجدنا أن عشرين ألفاً من التجار الهنود يقيمون في أصفهان[1].

وكانت دول أوروبا الغربية مثل إنجلترا وفرنسا وهولندا وإيطاليا تصدر إلى إيران سلعًا مثل أدوات الزينة والخيوط، وقد استدعى كل هذا النشاط تغييرًا في أسلوب التجارة فأصبحت تعرف التعامل بالنقود بدلا من المقايضة، وكانت النقود توضع في أكياس يحتوي كل منها على 2500عباسي[2].

---

(1) كانت العلاقات بين سلاطين الصفويين والملوك التيموريين بالهند مبنية على الصداقة، وقد أشرنا إلى ذلك، وكان الجانبان كثيرًا ما يتحدوا من أجل صد الأوزبك فعلاقات إسماعيل ببابر مؤسس الدولة التيمورية في الهند معروفة، وعلاقات ابنه طهماسب مع همايون مسجلة، وفي عهد الشاه عباس كانت العلاقات بينه وبين أكبر شاه وابنه جهانگير قوية وحسنة.

(2) العباسي عمله تساوي 50 تومانا في حينها.

ولكون التجارة هي متاع الشعوب، وتمثل القاسم المشترك بـين أفـراده كان رؤساء المدن من التجار، وهو ممثل الرعيـة لـدى حـاكم الإقلـيم. كـما تلزم الإشارة

إلى أن النشاط التجاري في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عـشر المـيلادي قـد بـدا غالبًـا في المـدن الوسـطى والغربيـة أكـثر منـه في مـدن أخرى،وربما كان من أسباب ذلك قلة التجارة مع آسيا الوسطى.

يستبين من العرض السابق أن النهضة الحضارية قد وصلت إلى أوجها بما يجعل الدولة الصفوية في حالة إيجاب أسـعدت بـه شـعبها، والحـديث الشريف يقول : كلكم راع وكلكم مسئول عـن رعيتـه. وهـذا إيجـاب أكـثر منه سلباً.

الفنون

من إيجابيات الدولة الـصفوية الفنـون التـي تركـزت في نـواح مختلفـة منها، فقد ظهر أسلوب كلاسيكي جديد يستمد أصـوله مـن حـضارات آسـيا القديمة، ونبغ فيه الذوق الإيراني إلى حد بعيد. مـن حيـث عنايـة الفنـانين بالنقش على الجدران، ورسم الصور المستقلة.

وإذا كانت الحقبـة التاليـة لحكـم إسـماعيل الأول قـد انقـضت دون رعاية الفنون بالنظر إلى طبيعـة الأحـداث فيهـا، فإنهـا تبـدلت إلى مـا هـو أفضل بدءًا من عـصر عبـاس الكبـير إلى حـد أنـه أصبح محـسودًا في نظـر لاحقيه على الرغم من طبيعة الأحداث في زمانهم.

بتولي الشاه عباس الكبير الحكم آثر أن يجعل أصفهان عاصـمة لملكـه لما بها من مميزات كبيرة[1]. فـصارت مركـزًا تجاريًـا وماليًـا وصـناعيًا وأنـشأ للأرامنة حيا" خاصا بهم وهو حي جلفا مكافأة لهم على مـساعدتهم لـه في التجارة العالمية[2].وكأن الدولة الـصفوية أول مـن نقـل العاصـمة في تـاريخ الدنيا حسب طبيعة الموقع، وهذا يحـسب إيجابًـا لهـا. فهـا هـما البرازيـل وباكستان تنقلان عاصمتيهما أخذًا بما ابتكرتـه الدولـة الـصفوية أيًـا كانـت الأسباب التي أدت لذلك.

ركز عباس همه في أن يقيم بها العمائر المختلفة من حدائق ومساجد ومنائر، وتـابع خلفـاؤه هـذا المـنهج، فأصـبح يطلـق عليهـا (أصـفهان نـيم جهان) أي أصفهان نصف الدنيا، وقصدتها الوفود السياسية من كل صـوب وحدب تنظر إلى نهضتها الفنية والمعماريـة، وتتجـر في صـناعتها المختلفـة، وتعقد المعاهدات مع الشاه عباس الكبير لأنه كبير فعلا.

---

(1) اتخذ إسماعيل الأول من مدينة تبريز عاصمة للدولة الصفوية في أول عهدها ونقلها طهماسب الأول إلى قزوين ثم نقلها عباس الكبير إلى أصفهان لتبقى فيها.

(2) الشاه عباس الكبير، بديع جمعة –81 م.

كان من الطبيعي أن تزخر أصفهان بآثار هـي اليـوم شاخـصة، وأكـثر من أن تحصى. ومـن ثـم نتنـاول أبرزهـا موزعـة عـلى نـواح مختلفـة منهـا المساجد، والقصور، والحدائق، والمنائر، والعمائر.

ويكفـي دلـيلا عـلى فخامتهـا أن الأثـري الفرنـسي (بـوب) الـذي قـام بدراسة آثار أصفهان أوصي أن يُدفن بها. ومن هنا نعرض لنماذج من هذه الآثار كشاهد على إيجـاب الدولـة الـصفوية في النهـضة بـالفنون في رحلـة حكمها.

مسجد الشيخ لطف اللـه

يقع هذا المسجد في ميدان "شاه" أمام مبنـي "عـالي قـابو" وقـد بنـي هذا المسجد بأمر من الشاه عباس الكبير. وهناك اختلاف في تاريخ الابتـداء في بناء هذا المسجد، وإن كان من المتفق عليه أنـه قـد شُرع في بنائـه بـين عامي 1011 – 1028 هــ / 1601 –1618 م. وقـد سـمي بهـذا الاسـم؛ لأن إمامه هو الشيخ لطف اللـه ميسي، وكان من أئمة الشيعة في زمانه. وهـذا الأثر من الروائع المعمارية في قارة آسيا.

وما يلفت النظر في هذا المسجد هـي تلـك الكتابـة التـي زينـت بهـا الجدران والقباب، وكتبت بخط الثلث بيد مـشاهير الخطـاطين مـن أمثـال على رضا عباسى[1] فمثلاً:

(1) انظر ما كتبه الدكتور زكي محمد حسن عن هذا الخطاط الفنان الذى كـان مدرسـة فنية في كتابـه : الفنـون الإيرانيـة في العـصر الإسـلامي، ص 121 ومـا بعـدها، دار الرائد العربي 1980.

أ – الكتابة المنقوشة بمدخل المسجد نقشت بـالخط الثلـث والكـاشي المعروف على أرضية لاجوردية اللون، وقد ورد بها: أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك السلطان الأعظم والخاقان الأكـرم محيـي مراسـم آبائـه الطـاهرين مـروج مـذهب الأئمـة أبـو المظفـر عبـاس الحـسيني الموسـوي الـصفوي بهادرخان خلد الـلـه تعالي ملكه، وأجرى بحار التأييـد فلكـه بمحمـد وآلـه الطاهرين صلواته وسلامه عليه وعليهم أجمعين "كتبها عـلى رضـا العبـاس 1012 هـ".

ب – الكتابة الخارجية للقبة بخط الثلث مع الكـاشي الأبـيض المعـرق على أرضية لاجورديـة تـشتمل عـلى سـور: الـشمس والعـصر والكـوثر، وفي سطر أخر توجد هذه الجملة بخط النستعليق "تـم في عـام 1315 شمـسي مما يدل على وقت تعمير القبة"[1].

ج – الكتابة العلوية في داخل قبة المسجد كتبت بالخط الثلث الأبيض المعرق على أرضية لاجوردية، وهي بخط على رضا عباسى وجـاء فيهـا "عـن النبي صلى الـلـه عليه وآله أنه قال: من توضأ ثم خـرج إلى المـسجد، فقـال حين يخرج من بيته بسم الـلـه الذي خلقني فهو يهـديني هـداه الـلــه إلى الصواب والإيمان، وإذا قـال: وإذا مرضـت فهـو يـشيفين جعـل الـلــه ذلـك كفارة لذنوبه، وإذا قال والذي يميتني ثم يحييني أماته الـلـه ميتة الـشهداء وأحياه حياة السعداء، وإذا قال: والـذي أطمـع أن يغفـر لي خطيئتـي يـوم الدين غفر الـلـه له خطأه كلـه وإن كـان كزبـد مـن البحـر: وإذا قـال: ربي هب لي حكمًا وألحقني بالصالحين وهـب الـلــه لـه حكـمًا وعلـمًا وألحقـه بالـصالحين مــن مــضي وصــالح مــن بقــي: وإذا قــال: واجعــل لي لــسان

(1) الشاه عباس الكبير، بديع جمعة، ص 297.

صدق في الآخرين كتب اللــه لـه في ورقـة بيـضاء أن فـلان بـن فـلان مـن الصادقين، وإذا قال واجعلني من ورثة جنة النعيم أعطـاه اللــه منـازل في جنة النعيم، وإذا قال: اغفر لأبي غفر اللـه لأبويـه. عـن أئمـة أهـل البيـت سلام اللـه عليهم أجمعين إذا دخلت المـسجد فقـدم رجلـك اليمنـى وقـل بسم اللـه وباللـه ومن اللـه وإلى اللــه وخـير الأسـماء كلهـا لله توكلـت على اللـه ولا حول ولا قوة إلا باللـه اللـهم صـلى عـلى محمـد وعـلى آل محمـد وافـتح لي أبـواب رحمتـك وتوبتـك وأغلـق عنـي أبـواب معـصيتك واجعلني من زوارك وعمار مساجدك وممن يناجيك في الليل والنهار وابعد عني الشيطان الرجيم وجنود إبليس أجمعين. وقال الإمـام أبـو جعفـر بـن محمد الصادق عليه السلام: من مشى إلى المسجد لم يضع رجلا عـلى رطـب ولا يابس إلا سـمحت لـه الأرض إلى الأرض الـسابعة. صـدق رسـول اللــه صلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم "كتبهـا عـلى رضـا العبـاسي في 1025 ش 75" وهذا الأثر التاريخي مسجل برقم 105في فهرست بناهاى تـاريخى وأمـاكن باستاني ص37.

قصر چهلستون: قصر الأربعين عمودًا

يقع هذا القـصر في جنـوب شـارع سـبه الحـالي، وعـلى مـساحة تبلـغ 67000 متر مربع، وقد كتب أغلب المؤرخين أن هذا القصر كـان جـزءًا مـن حديقة نقش جهان، وقد قام الشاه عباس الكبير بفصل جزء منها، وأقـام في وسطها عمارة ذات أسقف غريبة الطـراز، واحتفـل بعيـد النـيروز في الـسنة الثالثة والعشرين لجلوسه على العـرش هنـاك. وهـذا القـصر يـشتمل عـلى حديقة تقع عمارة (چهلستون) في وسطها، ويرتفع المستوى الذي بني عليه المبني بمقـدار مـتر واحـد عـن أرض الحديقـة، ويوجـد أمـام مبنـي القـصر صحن كبير للمياه في حكم البحـيرة الـصغيرة، ويـشتمل مبنـى القـصر عـلى

إيوان كبير طوله 38م وعرضه 17م ويبلغ ارتفاعه 14م وواجهته تطل نحو جهة الشرق، وله ثمانية عشر عمودًا، وترتفع الأعمدة الأربعة التي في وسط القصر على أربعة أسود حجرية، وقد وقفت هذه الأسود الحجرية بحيث يكون كل اثنين منها برأس واحدة وتخرج المياه من أفواه هذه الأسود لكي تصب في حوض من المرمر يقع في وسط هذه الأسود الأربعة، وفوق هذا الإيوان توجد كتابات بعضها من زمن الشاه عباس الثاني تحوي أشعارًا كتبت بيد خطاطين محترفين في ذلك الوقت، وبعضها الآخر يشمل من أول الإيوان إلى آخره، وقد كتب في زمان الشاه حسين الصفوي بخط النسخ تعليق وكتبها الخطاط سيد محمد صالح.

المنارة المهتزة:

تعتبر هذه المنارة من الأبنية الجذابة في أصفهان، وتقع في قرية كاردلان على طريق أصفهان نجف آباد. وهذا البناء الذي تقع عليه المنارة مكون من صحن وإيوان توجد فيه مقبرة عمو عبد اللـه وتوجد على طرفي هذا الإيوان مناراتان وضع بينهما عمود من الخشب بوضع أفقي بحيث إذا تحركت إحدى هاتين المنارتين فإن الأخرى تهتز أيضًا.

وليس في هذا البناء أي نوع من الكتابة التاريخية التي يمكن أن يستدل منها على بداية البناء أو تاريخ الانتهاء منه سوي التاريخ المدون فوق قبر عمو عبد اللـه والذي يفيد بأنه قد توفى عام 716 هجري.

وقد كتب على قبر عمو عبد اللـه كتابات بالخط الثلث البارز على حجر من المرمر نصب على الحائط فوق الحجر الكبير للقصر. وهذه الكتابات بالنص التالي: "هذا قبر الشيخ الزاهد البارع المتورع السعيد

التقي عمو عبد اللـه بن محمد بن محمود شقلا رحمة اللــه عليـه ونور في السابع عشر من شهر ذي الحجة سنة 761".

وقد كتبت سورة يس بالخط الثلث البارز عـلى أطـراف حجـر القـبر، ومكتوب كذلك على الضلع الجنـوبي للحجـر بـنفس الخـط "كفـى بـالموت واعظًا".

ولكـن لا يوجـد في المنـارة نفـسها أي نـوع مـن الكتابـات أو الأثـر التاريخي، ويبلغ ارتفاع إيوان المنارة المهتزة عشرة أمتـار، وارتفـاع كـل مـن المنارتين 175م وتبلغ المسافة بين المنارتين فوق سقف الإيوان تـسعة أمتـار ومحيط كل منارة 45 متراً.

عمارة عالي قابو:

هذه العمارة موجودة من أيام الـسلاجقة، ولكنهـا اكتـسبت في عـصر الدولة الصفوية كل هذا الجمال، وقد أحضر الشاه عباس الكبير باب هـذه العمارة من النجف.

وقصر عالي قـابو يتكـون مـن ثلاثـة طوابـق، وكـل طـابق ينقـسم إلى طابقين من الغرف، ولما كان من الممكن رؤيـة جميـع منـاظر المدينـة مـن سقف الطابق الأخير في العمارة فقد حـسبوه هـو الآخـر طابقًـا إلى جانـب الطوابق الأخرى.

ويبلغ ارتفاع هذه العمارة أمتارًا عديدة، ولها إيوان كبير ويوجـد بـين أعمدة هذا الإيوان حوض من النحاس به نافورة مياه.

وهذا القصر يقـع في غـرب ميـدان شـاه ويوجـد في الناحيـة المقابلـة لعمارة عالي قابو وفي شرق ميدان شاه مسجد شيخ لطف اللـه.

ميدان نقش جهان : ميدان الشاه:

يقع ميدان نقش جهان الذي وصفه الرحالة شاردن بأنه أجمل ميدان في العالم عندئذ[1]. وقد اختلف الرواة في تاريخ إنشائه. وقد اتخذ هذا الميدان شكلا مستطيلا يسمح بإقامة الاحتفالات[2]. وقد ألقت عليه الحكومة البهلوية تعديلات في العصر الحديث حتى أصبح في صورة عصرية جميلة أخاذة[3].

أمر الشاه عباس مسئوليه أثناء انشغالهم ببناء ميدان نقش جهان والمباني المطلة عليه بشق طريق يربط بين هذا الميدان ونهر زاينده رود [4] وأن يعبر هذا الطريق النهر بواسطة إنشاء قنطرة عرفت فيما بعد باسم (جسر الله وردي خان) ثم يواصل الطريق امتداده بعد ذلك حتى أسفل الجبل الموجود جنوبي أصفهان، على أن تغرس على جانبي الطريق أربعة صفوف من أشجار الدلب. ولهذا عرف هذا الطريق باسم شارع الحدائق الأربع، وقد بلغ طوله أكثر من ثلاثة كيلومترات[5]، أما الجسر فقد تهدم من فتحاته سبع فتحات، وبقيت منه ثلاث وثلاثون فتحة ما زالت قائمة حتى اليوم.

---

(1) آثار ملي أصفهان، أبو القاسم رفيعى مهر آبادي، ص 362 تهران 1353 هـ.ش

(2) إيران درزمان صفوية : ص 266.

(3) الشاه عباس الكبير، بديع جمعة، ص 293.

(4) الشاه عباس الكبير، المرجع السابق ص 301.

(5) الشاه عباس الكبير، لديع جمعة، ص 304.

قنطرة جلفا:

كانت تربط مدينة أصفهان بضاحية جلفا الجديدة التي بناها الشاه عباس ليقيم فيها الأرمن بعد تهجيرهم إليها وتضم هذه القنطرة ستة طرق للعبور:

الطريقان الأول: وهو الطريق الأوسط: وقد خصص لعبور الفرسان والعربات.

الطريقان الثاني والثالث: وهما على طرفي القنطرة في طابقها الأول، وقد خصصا للمشاة.

الطريقان الرابع والخامس: ويعلوان الطريقين الثاني والثالث، وكان الناس يصعدون إليها للفرجة والمشاهدة عن طريق سلالم جميلة موجودة في أول القنطرة وآخرها.

الطريق السادس: ويوجد أسفل القنطرة.

وقد لفتت هذه القنطرة أنظار الأوربيين الذين زاروا أصفهان أيام حكم الشاه عباس أو بعد ذلك، وأسهبوا في وصفها والتعبير عن جمال تنفيذها، ومن هؤلاء شاردن وتارونيه الفرنسيان، وسايكس الإنجليزي الذي قال عنها: إن هذه القنطرة على الرغم مما أصابها من تهدم وتصدع فإنها تعد واحدة من أعظم قناطر الدنيا[1].

وهذه القنطرة ما زالت قائمة حتى اليوم، ويؤمها الناس للتنزه. ومن المباني التي بدأ العمل فيها خلال سنواتحكم عباس ولم يكتمل البناء قبل

---

(1) History of Rersia vol. 11 p 201.

وفاته أيضًا قصر (هشت بهشت - الجنان الثماني)، وقد أعيد بناؤها بصورة كبيرة في عام 1080 ه أيام حكم الشاه سليمان.

وبـذلك فـإن الدولـة الـصفوية قـد ضربـت بـسهم وافـر في الارتقـاء بالفنون[1] في مجالاتها المختلفة مثل الزخارف، السجاد، الفـرش بتطريزاتهـا المنوعة الزخارف، الخط التذهيب، التصغير.. إلخ. بمـا يُعـد إيجابًـا يحـسب لها عبر التاريخ بشهادة الأجانـب الـذين زاروا إيـران، وبهـروا لمـا رأوه مـن فنون. فاستحقت أصفهان لقب (أصفهان نيم جهـان) وهـذا يؤكـد مدنيـة الدولة الصفوية وشخوصها في سماء المعرفة.

(1) ازدهر فن الخط منذ أوائل الفتح الاسلامى فى ايران . بل إنـه قـد ابتكـرت خطـوط معروفة على يـد الفـرس . ويكفـى أن نـشير فى هـذا الـصدد إلى الروانـدى الـوزير السلجوقى كان خطاطا يجيد فنونا كثيرة للخط . ولما كان الـسلاطين يـسعون لنيـل الخطوة الدنيوية بنسخ القرآن الكريم، وأن إسماعيل الأول كان يحفظه، وينفـذ أحكامه، فقد جمع حوله كثرة من الخطاطين المـشهورين عندئـذ . مثـل آقـاميرك وغيره من أساتذة الخط .

النتيــجة

هذه دولة عمرت أكثر من قرنين، بصماتها ما زالت قائمة حتى الآن، بل هي كالشمس شرقت وغربت، وارتقت بالفنون بل في جنبات الحضارة كافة، والإيرانيون يفخرون بأمجادها فقد أعادت لإيران استقلالها بعد طول عهد خضعت فيه لأنواع شتى من الأجناس ويقولون في المثل: من لا يترك أثرًا ينقضي دون ذكر. أما لسان حال هذه الدولة فيردد: هذه آثارنا تدل علينا، فانظروا من بعدنا إلى الآثار.

ومهما كانت هذه الآثار إيجابها وسلبها فهي تحقق قول الله في قرآنه الكريم(لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض). ومن ثم فمن الإجحاف أن نغلب سلبها على إيجابها أو العكس، فهذه صفة الكون منذ أول الخليقة.

وإذا أردنا أن نقَوم إيجابها وسلبها بالنظر إلى أننا نعيش في قرن استخدام العقل في كل ما يحيط بنا فيكفي أن الرسول (ص) يقول "لو تعلق العلم بأكناف الثريا لناله قوم من أهل فارس" حديث شريف والدوام لله.

فهرست المصادر

1. History of rersia vo1.11p201
2. اثار ملي اصفهان، ابو القاسم رفيعى، مهر ابادى، طهران 1353ه ش.
3. أحسن التواريخ، حسن روملو، چاب عبد الحسين نوايى، تهران، 135ه ش.
4. تاريخ اجتماعى ايران، مرتضي راوندى، مؤسسه انتشارات امير كبير، تهران 1354ه ش.
5. تاريخ اجتماعى ايران، مرضى راوندي، مؤسست انشارات امير كبير، تهران، 1975م.
6. تاريخ ادبيات ايران، ج4، ادوارد جرانفيل براون، ترجمة رشيد ياسين.
7. تاريخ الشعوب الاسلامية، كارل بركمان، تعريب منير البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت، 2005م.
8. تاريخ ايران _ مجموعه من المستشرقين الروس _ ترجمة كريم كشاوز.
9. تاريخ ايران از ازمنه باستاني تا سال 1316 ه ش,عبد اللـه رازي,نشر اقبال، تهران 1317ه ش.
10. تاريخ ايران از دوران باستان تا بايان سده هيجدهم، كريم كشاورز، انتشارات بيام، 1978م.
11. تاريخ ايران ازمغول تا افشاريه,رضا بازوكي,چابخانه فرهنگى، تهران 1314ه ش.
12. تاريخ پانصد ساله خوزسان، مرتضي راوندي.
13. تاريخ زندگانى شاه عباس اول,نصرالـله فلسفى,انتشارات نگاه، تهران 1391ه ق.

14. تاريخ سياسى واجتماعى ايران از مرگ تيموريان تا مرگ شاه عباس، ألـو القاسم طاهري، شركت انتشارات علمى وفرهنگى، هران، 1391ه ش.
15. تشكيل شاهنـشاهى صـفوى، نظـام الـدين مجـبر شـيبانى,وحـدت اول، 136ه ش.
16. حسيب السير,غياث الدين بن همام الدين، طهران، 1271ه ش.
17. دراسـات في الحـضارة والادب الـصفوي، محمـد الـسعيد عبـد المـؤمن، مكتب الانجلو المصرية، القاهرة، 1978م.
18. دولة الاسماعيلية في ايران، محمد السعيد جمال الدين,القاهرة 1975م.
19. الدولة الصفوية _ تاريخها السياسي والاجتماعي _ علاقاتها بـالعثمانيين، أحمد الخولي، دار الكتب الجامعية، القاهرة، 1981م.
20. ذكرة طهماسب,ترجمـة مـصطفى شريـف، رسـالة ماجـسير، آداب عـين شمس غ م.
21. روضه الـصفا في سـيرة الانبيـاء والملـوك والخلفـاء,مـير خوانـد، بومبـاي، 1270ه.
22. سـياحت نامـه شـاردن، جـون شـاردن، ترجمـة محمـد عبـاس مؤسـسه مطبوعاتى امير كبير، 1335ه ش.
23. شاه عباس اول، بديع جمعة، دار النهضة العربية، القاهره 1980م.
24. شرف نامه، شرف خان شمس الدين البدليسي 1599م.
25. عالم آرى عباس، ترجمة مصطفى شريف، امير خواند، حقيق عبد اللــه شكري، طهران 1350ه.
26. الفون الايرانية في العصر الإسلامي، زكي محمد حسن، دار الرائد 1980.
27. نادر شاه، احمد الخولي، اصدارات المجلس الاعلى للثقافة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010 م.
28. وحيد قزويني بين الابداع والحقيقة، آمال حسن، بحث غير منشور.

الفهـــرس





الأستاذ المساعد
الدكتور ماجد مرهج

- تاريخ الميلاد 1960/7/9
- أستاذ اللغة الفارسية وآدابها في جامعة واسط ـ العراق.
- حاصل على شهادة الليسانس من جامعة بغداد كلية اللغات - القسم الفارسي عام 2000م.
- حاصل على شهادة الماجستير من جامعة بغداد ـ كلية اللغات ـ القسم الفارسي عام 2006م.
- حاصل على شهادة حقوق الإنسان من المعهد الوطني لحقوق الإنسان – وزارة حقوق الإنسان العراقية عام 2009م.
- حاصل على شهادة منتدى القانون الدولي من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة عام 2011م.
- حاصل على شهادة حقوق الإنسان من الأمم المتحدة –اليونسكو عام 2011م
- حاصل على شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من جامعة عين شمس ـ جمهورية مصر العربية 2013م.
- مدير تحرير مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية.
- عضو اتحاد المترجمين الدوليين.
- عضو المركز العربي الأوربي لحقوق الإنسان.
- عضو في لجنة إدراج مدينة بابل الأثرية ضمن التراث العالمي.